الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة

تأليف
الأستاذ الدكتور
عبدالله محمد نوري الديرشوري
جامعة الملك فيصل - كلية الآداب - قسم الدراسات الإسلامية

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة

تأليف:

الأستاذ الدكتور: عبد الله محمد نوري الديرشوي

جامعة الملك فيصل - كلية الآداب - قسم الدراسات الإسلامية

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على خاتم النبيين وإمام المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد

لا يخفى ما للأخلاق والقيم من أهمية في حياة الناس، سواءٌ في عصرنا هذا، أو في العصور السابقة واللاحقة. فالإنسان لَمْ ولنْ يستغنيَ عنها البتة؛ بل لا نعدو الحقيقة إنْ قلنا: إنها سِرُّ إنسانيته، وبقدر توافرها فيه يكون معنى الإنسانية فيه أتم وأظهر، حتى يصل إلى ذروة الكمال البشري، ويكون المثل الأعلى في الحياة، كما كان الشأن في الأنبياء والرسل.

والعكس أيضاً صحيحٌ، فبقدر تجرد المرء منها يكون معنى الإنسانية فيه أضعف، حتى يصل إلى الدرك الأسفل، ويكون شيطاناً في صورة إنسان، لا يقوم لجرائمه وإفساده شيء!.

وإذا كان هذا أثر الأخلاق في الأفراد، فإن أثره على الأمم لا يقل أهمية وخطورة أيضاً! إذ إن بقاء الأمم واستمرار الحضارات مرهون بالحق والعدل.

فبقدر ما يسود الحق والعدل والفضائل والقيم، يكون بقاء الأمة، واستمرار حضارتها، وبقدر اختفائها، يكون سرعة زوالها، واندثار حضارتها، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

وإنما الأمم الأخلاقُ ما بقيتْ فإن هم ذَهَبَتْ أخلاقُهم ذهبوا

وإذا أدركنا هذه الحقيقة، علمنا السِّر الذي يجعل أعداء الإسلام يحرصون على غزو المجتمعات الإسلامية في أخلاقها وقيمها، ونشر التفسخ والرذيلة فيها، حيث يعتبرونه الطريق الأسهل والأسرع إلى النيل من وجودها وحضارتها ودينها.

وبالمقابل فإن علماء الأمة ودعاتها ومفكريها، والغيورين على كيانها وحضارتها ومستقبلها، يكرسون جهودهم في سبيل تحصين الأمة ضد تلك المخاطر بالحث على المزيد من التشبث بالأخلاق والقيم التي جاء بها ديننا الحنيف، وما هذا الكتاب إلا امتدادٌ لتلك الجهود الطيبة المباركة، وهويستهدف طلبة الجامعة بصفتهم الشريحة الأهم والأخطر في المجتمع.

وقد وزعته على أربع عشرة وحدة دراسية، هي:

الوحدة الأولى: تعريف الخلق وموضوعه وأقسامه ومكانته.

الوحدة الثانية: أسس الأخلاق في الإسلام.

الوحدة الثالثة: خصائص الأخلاق الإسلامية.

الوحدة الرابعة: وسائل اكتساب الأخلاق.

الوحدة الخامسة: الإلزام والمسؤولية والجزاء الأخلاقي.

الوحدة السادسة والسابعة: نماذج من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

الوحدة الثامنة: تعريف أخلاق المهنة ومدى الحاجة إلى دراستها.

الوحدة التاسعة: الأخلاق الجامعة للمهنة وخلق الطهارة المهنية.

الوحدة العاشرة: خلق الاستقامة المهنية.

الوحدة الحادية عشرة: خلق التعاون المهني.

الوحدة الثانية عشرة: خلق الأمانة المهنية.

الوحدة الثالثة عشر: خلق المحبة المهنية.

الوحدة الرابعة عشر: نماذج من مواثيق الشرف أو المهنة.

واللهَ عز وجل أسأل أن يجعله عملاً صالحاً متقبلاً، خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنه خير مسؤول، وأكرم مأمول، والحمد لله رب العالمين.

الوحدة الأولى

(تعريف الخُلُق، وموضوعه، وأقسامه، ومكانته في الإسلام)

أولاً: تعريف الخُلُق:

الخُلُق لغة: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية[1]، أي ما جُبِل عليه الإنسان من الطَّبع، وجمعه أخلاقٌ.

وهو - أي الخُلُق – يمثل صورة الإنسان الباطنة، التي هي نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصَّة بها، أو بتعبير آخر: الجانب المعنوي في شخصية الإنسان.

كما أن الخَلْق يمثل صورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، أو بتعبير آخر: الجانب المادي في شخصية الإنسان.

واصطلاحاً: حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شرٍ بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فِكْرٍ و رَوِيَّةٍ[2]، وبهذا المعنى ورد قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

(١) مادة خلق. باب القاف، فصل الخاء. لسان العرب، القاموس المحيط.
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي: ٣/ ٥٣، وقريب منه تعريف الجاحظ، وابن مسكويه. انظر: تهذيب الأخلاق لابن مسكويه: ٤٤؛ نضرة النعيم للشيخ صالح ابن حميد: ١/ ٦١.

وقد يطلق الخُلُق على نفس المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على الوجه الأكمل[1]، وبهذا المعنى ورد قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[2].

شرح التعريف: التعريف الأخير -نعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني- واضح لا لبس فيه، فالصدقُ والسخاءُ والرحمةُ والعدلُ وحبُ الخير للناس؛ جميعها أخلاقٌ حميدةٌ، وفضائلُ مُسلَّمةٌ، يسعى عُقلاء الناس للتحلي بها، وتربية أولادهم عليها.

وأما التعريف الأول فهو الذي يكتنفه بعض الغموض، ويحتاج إلى توضيح، فنقول في بيان ذلك:

قولهم : «حالٌ» أي هيئةٌ أو صفةٌ للنفس الإنسانية، وبهذا الاعتبار يقال: فلانٌ خلقه حميد، أي: الصفةُ التي في نفسه - وهي التي وراء تصرفاته السلوكية - حميدةٌ.

وقولهم: «راسخةٌ» أي: ثابتة بعمق، وهو ما يعني أنّ الأفعال تتكرر من صاحبها على نسقٍ واحدٍ حتى تصبح عادةً مستقرةً لديه، ومن ثمَّ كان مَنْ يُنفق المال مرةً أو مرتين أو ثلاثٍ على المحتاجين لا يوصف بخُلُق السخاء والجود، بل لابد من تكرره منه بحيث يصبح عادة له.

(١) انظر: نضرة النعيم: ١/ ٦٣.
(٢) مسند الإمام أحمد: رقم ٨٩٣٩، وهو حديث صحيح. انظر: التمهيد لابن عبد البر: ٢٤/ ٣٣٣-٣٣٤.

وقولهم: «من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ ورَوِيَّةٍ» أي من غير تكَلُّفٍ أو مجاهدةِ نفس، بل بسهولة ويسر، وبطريقة تلقائية.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلانٌ حسنُ الخُلُق والخَلْق، أي: حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة، وذلك لأنّ الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدرك بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة، ولكل واحد منهما هيئةٌ وصورةٌ: إمّا قبيحةٌ، وإمّا جميلةٌ، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد»[1].

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٣.

ثانياً: موضوع علم الأخلاق:

ليس جميع ما يستقر في النفس من الصفات من قبيل الأخلاق؛ بل منها ما هو من قبيل الغرائز والدوافع ولا صلة لها بالخلق، وما يميز بين الاثنين هو: أنّ الأخلاق يبحث في الأحكام القيمية المتعلقة بالأعمال التي يمكن وصفها بالخير أو الشر، أو بالحُسن أو القُبح.

وأما الغرائز والدوافع فهي حاجات فطرية، جَبَلَ الله الإنسان عليها، كحاجته للأكل والشرب والزواج والنوم، وهذه لا تستوجب لصاحبها مدحاً أو ذماً، كما لا يترتب على إشباعها ثوابٌ أو عقابٌ.

فإنْ حصل ومُدِحَ الإنسانُ أو ذُمَّ على تعاطيه مع بعض تلك الغرائز أو الدوافع، كان المقصود ليس نفس الفعل، وإنما الطريقة التي اتبعها صاحبها في تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة، فمن يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل، وإنما يُمدح أو يُذمُّ على طريقته في الأكل، فإنْ أكل مثلاً مما يليه، وبهدوءٍ، ومضغ الطعام جيداً، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمِد على فعله هذا، وإنْ أكل بشراهةٍ، وأدخل اللقمةَ على اللقمة، وجالت يده في القصعة، ذُمَّ على فعله ذاك، وهكذا يقال في تعاطيه مع جميع الدوافع والغرائز من شراب ونكاح ونوم وحبٍ للمال والولد.

ثالثاً: أقسام الخلق:

يمكن تقسيم الخلق إلى قسمين اثنين باعتبارين مختلفين:

أولهما: باعتبار الفطرة والاكتساب، وينقسم إلى:

١ - أخلاقٌ فِطْرية:

جَبَلَ الله الإنسان عليها، أي أنها هبةٌ ومنحةٌ من الله تعالى، وليس للإنسان أي دور في اكتسابها، مثال ذلك ما جاء في حديث أشج عبد القيس - وكان وافدهم وقائدهم ورئيسهم وعبد القيس قبيلة - حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ»، قال يا رَسُولَ اللهِّ: أنا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا، أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قال: «بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا» قال: اَلْحَمْدُ للهِّ الذي جَبَلَنِي على خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله وَرَسُولُهُ[١].

قال الإمام النووي: أما الأشج فاسمه المنذر بن عائذ ،... وأما الحلم: فهو العقل، وأما الأناة: فهي التثبت وترك العجلة، ... وسبب قول النبى صلى الله عليه وسلم ذلك له ما جاء فى حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وأقام الأشج عند رحالهم، فجمعها وعقل ناقته، ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبى صلى الله عليه

(١) صحيح مسلم: باب الأمر بالإيمان باللهّ تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدِّين رقم ١٨؛ سنن أبي داود: باب في قبلة الرَّجُلِ، رقم (٥٢٢٥)، مسند أحمد بن حنبل: رقم ١٧٨٢٨. واللفظ لأبي داود.

وسلم، فَقَرَّبَه النبى صلى الله عليه وسلم، وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم: تبايعون على أنفسكم وقومكم؟ فقال القوم: نعم، فقال: الأشج: يا رسول الله إنك لم تزاول الرجل عن شيء أشدَّ عليه من دينه، نبايعك على أنفسنا، ونرسل من يدعوهم، فمن اتَّبَعنا، كان مِنَّا، ومَنْ أبى قاتلناه، قال: صدقت، إن فيك خصلتين ...، الحديث .

قال القاضي عياض: فالأناة: تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل، والحلم هذا القول الذى قاله، الدال على صحة عقله، وجودة نظره للعواقب[١].

٢ - أخلاقٌ مُكتسبة:

يسعى الإنسان في تحصيلها بالتدريب والممارسة العملية، ومن خلال مجاهدته لنفسه، ومنه قول النبي ﷺ : «إنما العلم بالتعلم»[٢]، وفي حديثٍ آخر «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله»[٣].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١/ ١٨٩.
(٢) صحيح البخاري: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: رُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع، رقم ٦٧.
(٣) صحيح البخاري: باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم ١٣٦١.

ثانيهما: باعتبار القبول وعدمه شرعاً.

وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:

١-خلق محمود:

وهو حسن الأدب، وتنتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ جميلةٌ عقلاً وشرعاً.

٢-خلق مذموم:

وهو سوء الأدب، وتنتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ قبيحةٌ عقلاً وشرعاً.

رابعاً: مكانة الأخلاق في الإسلام:

تمثل الأخلاق جوهر رسالة الإسلام ، بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من معنى.

فقد حث الإسلام على الفضائل وحذر من الرذائل في نصوص لا تحصى من القرآن والسنة، ووصل فيها إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب عليها أعظم مراتب الجزاء، ثواباً وعقاباً، في الدنيا والآخرة، فالرسول ﷺ أخبرنا أنَّ «الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار»[(١)]، وقال: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعتها تأكل من خشاش الأرض»[(٢)]، و«غفر الله لبغي في كلب سقته»[(٣)]، و«المرء يبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل، صائم النهار»[(٤)].

وبلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أنّ الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه ليُعلمنا أنه لا أبلغ ولا أرفع من هذه الصفة، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

---

(١) صحيح البخاري: رقم ٥٧٤٣.

(٢) صحيح البخاري: باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، رقم ٣١٤٠.

(٣) صحيح البخاري: باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم ٢٢٤٥.

(٤) مسند الإمام أحمد: رقم ٢٤٣٥٥؛ سنن أبي داود: باب حسن الخلق، رقم ٤٧٩٨. قال محقق المسند الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

وجعل الرسول ﷺ الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، ولعله يشير بذلك إلى أنه ﷺ كان المتمم والمكمل لرسالات من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام، وما بعثوا به من القيم والفضائل، كما أخبر بذلك ﷺ فقال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ الناس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ له وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ، قال: (فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[1].

وحسن الخلق من أكثر الوسائل التي توصل المرء إلى الفوز بمحبة الله ورسوله، والظفر بقربه يوم القيامة، حيث يقول ﷺ: «إِنَّ من أَحَبِّكُمْ إِلَي وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يوم الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»[2]، ولما سئل «مَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللهِ إلى اللهِ؟ أجاب: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[3].

هذا من حيث مكانة الأخلاق وأهميتها بصورة عامة.

وأما من حيث مكانة الأخلاق بين علوم الشرع فإن كثيراً من الباحثين المعاصرين يقسمون ما جاء به الإسلام من تشريعات وأحكام إلى شعب أربعة: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وربما قسمها

(١) صحيح البخاري: باب خاتم النبيين، رقم ٣٣٤٢.
(٢) سنن الترمذي: باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم ٢٠١٨. وقال: حديث حسن غريب. إلا أن للحديث روايات أخرى متعددة. انظر: فتح الباري: ٩/ ٦٣.
(٣) المعجم الكبير للطبراني: رقم ٤٧١. وهو حديث صحيح. انظر: الترغيب والترهيب: ٣/ ٢٧٤ رقم ٤٠٢٥؛ وفيض القدير للمناوي: ١/ ١٧٤.

بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات تحت اسم الشريعة، فقالوا: عقيدة، وشريعة، وأخلاق.

وكلا التقسيمين إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في تلك القضايا والمسائل التي تناولتها نصوص الشرع، وإلا فعند التأمل وإنعام النظر نجد أنّ هذه الشعب الثلاث أو الأربع لا تنفك عن بعضها، وأنها متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً، فالأخلاق لا تنفك عن العقيدة والعبادات والمعاملات، وفي نفس درجتها ومستواها من الأهمية.

ففي **باب العقائد**: نجد أنّ الإسلام يربط بين الإيمان والأخلاق ربطاً محكماً فيجعل حسن الخُلق علامة كمال الإيمان والتفاضل فيه، فيقول ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[1]، ويضفي على التوحيد صبغة خُلُقية، فيعتبره من باب: العدل، وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب: الظلم، وهو رذيلة خلقية، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وذلك لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها، وتوجه بها إلى من لا يستحقها، بل اعتبر القرآن الكريم الكفر بكل أنواعه ظلماً، فقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وفي **باب العبادات**: نجد أن الكبرى منها ذات أهداف أخلاقية منصوص عليها بجلاء:

(١) سنن أبي داود: باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم ٤٦٨٢؛ سنن الترمذي: باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١١٦٢. وقال حديث حسن صحيح.

فالصلاة وهي العبادة الأهم في حياة المسلم، لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني على الابتعاد عن الرذائل. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي كذلك تعين المسلم على مواجهة متاعب الحياة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والزكاة وهي العبادة التي تلي الصلاة في الأهمية، وسيلة لتطهير وتزكية النفس، وهما من الأهمية بمكان في عالم الأخلاق، قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصيام إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، وإدخال صاحبها في سلك المتقين، والتقوى جماع الأخلاق الإسلامية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والحج تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة، وضبط الجوارح، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾[البقرة: ١٩٧].

وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها سواءٌ في ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك.

ففي مجال الإنتاج يجب أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه مهما كان سيجلب لصاحبه من أرباح مادية، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وفي مجال التبادل يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب، وإنفاق السلعة بالحلف، واستغلال حاجة الآخرين أو استغلال بساطتهم أو طيشهم لخداعهم ففي الحديث: «لا يحتكر إلا خاطئ»[(١)]، أي آثم، وفيه أيضاً: «مَنْ غشنا، فليس مِنَّا»[(٢)]، وفيه: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ للسلعة، مَمْحَقَةٌ للربح»[(٣)].

وفي مجال الملكية، لا يحل للمسلم تملك ثروةٍ من طريق خبيث، ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق كأن يأخذه بالعدوان أو الحيلة، ولا يجوز له تنمية ملكه بطريق محرمة، ومن ثَمَّ حرم الله الربا والقمار والرشوة، وكل ما يعد من قبيل أكل المال بالباطل، وحرم كذلك الظلم بكل صوره وأشكاله، والضَّرر والضِّرار بكل ألوانه.

وفي مجال التوزيع أمر بالعدل بين الأولاد في العطية فقال ﷺ: «اتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بين أَوْلَادِكُمْ»[(٤)]، كما وضع نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث،

(١) صحيح مسلم: باب تحريم الاحتكار في الأقوات، رقم ١٦٠٥.
(٢) صحيح مسلم: باب قول النبي من غشنا فليس منا، رقم ١٠١.
(٣) صحيح مسلم: باب النهي عن الحلف في البيع، رقم ١٦٠٦.
(٤) صحيح البخاري: باب الإشهاد في الهبة، رقم ٢٤٤٧.

والصدقات المفروضة، والغنائم والفيء والخراج والجزية وعطايا بيت المال.

وفي مجال الاستهلاك والإنفاق أمر الإسلام بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال أيضاً: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، ومن هذا الباب تحريم الإسلام لاستعمال أواني الذهب والفضة مطلقاً، وكذا تحريمه لبس الذهب والحرير على الرجال.

وفي مجال السياسة ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب القذرة للوصول إلى الغايات مهما كانت تلك الغايات نبيلة، ورفض مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وبنى سياسته على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال جل شأنه: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وفي مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السِّلْم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال جل في علاه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢]، وجعل الإسلام الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٧٦].

وفي السنة أن النبي ﷺ كان إذا أَمَّرَ أَمِيراً على جَيْشٍ أو سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهَّ وَمَنْ معه من المُسْلِمِينَ خَيْراً ثُمَّ قال: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهَّ في سَبِيلِ اللهَّ، قَاتِلُوا من كَفَرَ بِاللهَّ، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تَمْثُلُوا ولا تَقْتُلُوا وَلِيداً»[1]، وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون المهديون من بعده، فقد كانوا يوصون قوادهم وأمراءهم عند تسيير الجيوش بتقوى الله، وعدم قتل غير المحارب، وعدم الإفساد والإضرار بالممتلكات، من ذلك ما جاء في وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان حين بعث جيوشاً إلى الشام، فقد خرج يتبعه ويوصيه، فكان مما قال: «إني أوصيك بعشر؛ لا تَقْتُلَنَّ صبياً، ولا امرأةً ولا كبيراً هرماً، ولا تَقْطَعَنَّ شجراً مثمراً، ولا تُخْربن عامراً، ولا تَعْقرنَّ شاةً ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ، ولا تَغْرقنَّ نخلاً ولا تحرقنَّه، ولا تَغْلُلْ ولا تَجْبنْ»[2].

(١) صحيح مسلم: باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، رقم ١٧٣١.
(٢) المصنف لابن أبي شيبة: من ينهى عن قتله في دار الحرب، رقم ٣٣١٢١. وهناك آثار أخرى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في النهي عن قتل الرهبان والخدم والأجراء، والأمر بالرفق

وهكذا فما من مجال من مجالات الحياة يمكن للمسلم أن يعيشها بمعزل عن القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية، وهذا الذي ذكرناه ما هو إلا غيض من فيض.

بالفلاحين. انظر نفس المرجع: ٣٣١١٩-٣٣١٣٦؛ والسنن الكبرى للبيهقي: باب ترك قتل من لا قتال فيه، رقم ١٩٧٢٩-١٩٧٣٩.

الوحدة الثانية

(أُسس الأخلاق في الإسلام)

يقوم النظام الأخلاقي في الإسلام على أربعة أسس هي: الأساس الاعتقادي، والأساس الواقعي، والأساس العلمي، ومراعاة الطبيعة الإنسانية[1].

أولاً: الأساس الاعتقادي:

يتمثل الأساس الاعتقادي للأخلاق الإسلامية في ثلاثة أركان هي:

الركن الأول: الإيمان بالله تعالى، وبأنه خالق الكون. وخالق الإنسان. وخالق الموت والحياة، والإيمان بأنه تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما يدور في خلجات النفس من خيرٍ أو شر، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

الركن الثاني: الإيمان بأن الله عز وجل منذ أن أوجد الإنسان فوق هذه البسيطة هداهم لمعرفته، وعرفهم بطريق الخير والشر، والحق والباطل، من خلال الرسالات السماوية التي أرسلها للبشر. قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ

(١) انظر هذه الأسس بتوسع في كتاب: علم الأخلاق الإسلامية للدكتور مقداد يالجن: ١٢٤-٢٠٧.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس:٨].

كما أنّ الله سبحانه وهب الإنسان العقل والفطرة، وأوجد فيه القوة والقدرة على إدراك تلك الحقائق، من معرفة الله، ومعرفة الحق، ومعرفة الخير والشر.

ومن ثَمَّ جاء تكليفهم باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وإدراك ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم، وتجاه المخلوقات الأخرى، وكذلك معرفة ما هو محرم عليهم، ومطلوب منهم اجتنابه.

الركن الثالث: الإيمان بالحياة الأخرى، وأنها إمّا نعيم، وإمّا جحيم، والنعيم لمن اتبع الحق، وأقدم على فعل الخير، واجتناب الشر، والجحيم لمن اتبع الباطل، وارتكب ما حرم الله.

وكلاهما يكون بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس:١٢]، وقال جل جلاله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزَّلزلة:٧-٨].

إذن؛ فهذه الحياة ميدان عمل واختبار للإنسان. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك:٢]، والحياة الأخرى للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ

لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

أهمية الأساس الاعتقادي:

هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم -المعتمد على الإيمان بالله، وبرسالاته، وبالحياة الأخرى، والحساب- في غاية الأهمية، بل إنه السند الذي يُعتمدُ عليه في إقامة النظام الأخلاقي الإسلامي، وفي عملية الالتزام به.

ومن غير هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتأثيرها في الإنسان. بل يستحيل أن تطبق تطبيقاً عملياً دقيقاً في السر والعلن، ثم بقدر تمكن هذا الأساس في قلب المؤمن، ورسوخه فيه، وإيمانه الصادق به، يكون الامتثال والتحلي بتلك الفضائل والقيم.

وليس هذا أساسٌ للسلوك الأخلاقي فحسب، بل كذلك للحياة كلها؛ ومن غيره لا يكون للحياة معنى في الحقيقة.

ودليل ذلك ما نلحظه في سلوك الوجوديين وأمثالهم من الملاحدة -الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر- حيث القلق والحيرة والاضطراب يستبد بأعماق قلوبهم، وبتفكيرهم. وأما المؤمن فهو في طمأنينة ورضا، مهما واجهته من المصائب والمشاكل، وبقدر زيادة إيمانه، وتمكنه من قلبه، يكون شعوره بالرضا أعظم، وتسليمه بقضاء الله وقدره أتم.

والسر في ذلك هو أنّ في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، فأحس بالقلق والاضطراب.

وإنّ مما يؤكد ما سبق أن أولئك الناس -من غير المؤمنين- لا يعانون فقراً أو حرماناً أو مرضاً! وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي تجلبها العقيدة الصحيحة، والإيمان القويم.

إنّ اعتماد الأخلاق على هذا الأساس العقدي، يضفي عليها طابعاً مميزاً من القداسة والاحترام، ويوقظ في صاحبه الوازع الديني -أو ما يسمى بالضمير- ويجعله أكثر استجابة لفعل الخير، وهذا ما يقر به الدكتور ألكسيس كاريل حيث يقول: «الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية»[1].

(١) علم الأخلاق الإسلامية للدكتور ياجن: ١٢٨-١٢٩. وقد نقله عن كتابه تأملات في سلوك الإنسان. ترجمة د. محمد القصاص: ١٤٠.

ثانياً: الأساس الواقعي:

دعا الإسلام إلى المثالية والسمو الروحي، وذم الذين أخلدوا إلى الأرض وشهواتها، إلا أن دعوته إلى المثالية هذه كانت واقعية في نفس الوقت، وكانت وسطاً بين نظرتين متطرفتين. والنظرتان المتطرفتان هما:

١-الدعوات الروحية التي تدعو الإنسان إلى مجابهة الطبيعة والاستعلاء عليها، مهما كانت الضغوطات التي تواجهه في الحياة شديدة، وذلك لأنه بهذا الاستعلاء وبهذه المجابهة، يحقق لنفسه السعادة المنشودة والسمو الروحي الذي يطمح إليه.

٢-الدعوات المادية -أو دعوات الطبيعيين- والتي تدعو إلى الاستسلام للطبيعة، والاستجابة لها، لأن سعادة الإنسان -من وجهة نظرهم- إنما تتحقق من خلال هذه الاستجابة، والإخلاد إلى الأرض، ومن ثمَّ فإنهم يتجاهلون متطلبات الروح.

وأما الإسلام فكان موقفه من الطبيعة وسطاً معتدلاً بين هاتين النظرتين، وقد تجلى ذلك في:

أ- دعوته الإنسان إلى أن يكون سيداً على نفسه، فيضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وأن يكون كذلك سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد. كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:٦١].

ب- دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع، وعدم التصادم معها؛ وذلك عن طريق اتخاذ قواعد للسلوك تنسجم تمام الانسجام مع القوانين الأساسية للحياة البشرية، وهو ما سنتناوله في الفقرة التالية.

ثالثاً : الأساس العلمي:

ونعني به القوانين الأساسية للحياة البشرية، والتي أقام الإسلام نظامه الأخلاقي عليها وهي: (قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع الإنساني، وقانون الارتقاء العقلي والروحي).

وفيما يلي نتناول هذه القوانين بشيء من التفصيل.

القانون الأول: قانون المحافظة على الحياة:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها سلوكاً أخلاقياً مشروعاً ومطلوباً، كما أنه اعتبر كل سلوك يضاد الحياة، أو يعوقها بصورة من الصور، سلوكاً غير أخلاقي، ومن ثمَّ فهو مرفوضٌ ومحرم.

ومن هنا كان القتل حراماً؛ لأنه سلوكٌ غير أخلاقي، وكذا تهديد الآخرين وإخافتهم، أو التحاسد والتباغض والتدابر، كلها محرماتٍ، ويعتبر سلوكاً غير أخلاقي.

فالإسلام جاء بتشريع كل ما من شأنه احترام حياة الناس، والمحافظة على أرواحهم وأعراضهم ودمائهم، والسعي لتحقيق ما فيه نفعهم.

القانون الثاني: تكاثر النوع الإنساني:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع الإنساني وتحسينه سلوكاً أخلاقياً راقياً ومطلوباً، ومن ثمَّ شرع الزواج، وحث عليه، ونهى عن التبتل أو الرهبانية، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1]، كما حث على حسن اختيار الزوجة، فقال صلى الله عليه وسلم: «تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم»[2]، وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، ذوي دين وخلق فقال صلى الله عليه

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٧٧٨؛ صحيح مسلم، رقم ٢٥٦٦. واللفظ للبخاري.
(٢) سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الأكفاء: رقم١٩٦٤؛ سنن الدار قطني، كتاب النكاح، باب المهر: رقم ٣٣١٨؛ السنن الكبرى للبيهقي، باب اعتبار الكفاءة: رقم ١٢٨٥٥، وهو حديث صحيح.

وسلم: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد»[١].

كما أنّ الإسلام – من جهة أخرى– منع كل سلوك من شأنه أن يحدَّ أو يعوق استمرار التناسل، كالرهبانية أو الخِصاء، لما فيه من المنافاة مع بقاء النوع الإنساني وتكاثره. ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك»[٢].

القانون الثالث: الارتقاء العقلي والروحي:

ونعني به أن الإسلام اعتبر كل سلوكٍ من شأنه أن يؤدي إلى السعادة، والإقبال على الحياة بمحبة وانشراح، وينمي العقل، ويحافظ عليه، سلوكاً أخلاقياً راقياً.

كما أنه اعتبر –من جهة أخرى– كل سلوك يضاد الحياة السعيدة، أو يضاد العقل، بأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس، أو متشائماً قلقاً، أو يضر بعقله، أو يجعله مريضاً، أو مستسلماً للجهل والخرافات، فإنها جميعاً تعدُّ سلوكاً غير أخلاقي.

(١) سنن الترمذي، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه: رقم١٠٤١؛ السنن الكبرى للبيهقي، باب الترغيب في التزويج من ذي الدين والخلق المرضي :رقم ١٢٦٠٥،وهو حديث حسن.

(٢) صحيح البخاري، باب تزويج المعسر الذي معه القرآن والإسلام: رقم ٤٧٨٦.

ومن ثَمَّ فقد حث الإسلام على العلم، وصلة الرحم، ومحبة الآخرين، والرحمة بهم، والرضا بقضاء الله وقدره. ففي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١]، وفي آخر: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»[٢]، فيتلقى المصائب بالرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، وأن ذلك هو الخير، وأن الحكمة كل الحكمة فيه، ولو خفي عليه وجه ذلك، فيحيا حياة سعيدة، وهذا ما لا يكون إلا للمؤمن.

كما حرم الإسلام الانتحار، وتعاطي المسكرات والمخدرات، وما من شأنه أن يضر الإنسان في بدنه أو عقله. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩]. وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩٠-٩١]، ومثل هذه النصوص كثيرة جداً.

وعليه فإن الإسلام يعد الخروج على القوانين تعدياً وخروجاً عن جادة الحياة المستقيمة.

(١) صحيح البخاري، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه: رقم ١٣.

(٢)صحيح مسلم، باب المؤمن أمره كله خير: رقم ٥٤٢٩.

رابعاً: مراعاة الطبيعة الإنسانية:

وهذا هو الأساس الرابع الذي يبني الإسلام نظامه الأخلاقي عليه، ونعني به أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه روحٌ وجسدٌ، وعقلٌ وشهوةٌ، وقلبٌ ومشاعرُ وعواطفُ، وأن هناك صراعاً بين طبيعة الإنسان وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض والتراب الذي خُلق منه، فينساق للأهواء والشهوات، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى السمو والرقي والمثالية.

ومن ثَمَّ فقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً للتنسيق بين هاتين الطبيعتين في الإنسان، ووجهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته المخلوق الذي كرمه الله، وبصفته الكائن الأشرف على ظهر هذه البسيطة، وبصفته من أتباع خاتمة الرسالات السماوية.

ولا يخفى أهمية هذا الأساس في الدراسات الأخلاقية، لما بين سلوك الإنسان، وطبيعته التي جبله الله عليها من صلة وثيقة، ولأن نجاح أي نظام أخلاقي يتوقف على مدى انسجامه مع واقع هذه الطبيعة البشرية.

الوحدة الثالثة

(خصائص الأخلاق الإسلامية)

تمتاز الأخلاق الإسلامية بجملة من الخصائص تميزها عن غيرها من الأنظمة الأخلاقية، وتعطيها وجودها وطابعها المتفرد والمستقل، وهي:

أولاً: الانبثاق عن عقيدة الإسلام:

الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالعقيدة ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما، والنصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخُلُق كثيرة جداً؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حسن الخُلُق، وذلك لأن حسن الخلق يقتضي أول ما يقتضي شُكر المنْعِم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأما التمرد على أوامره ونواهيه، فهو أعظم العقوق، وأفحش الخُلق، يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حُسْن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون: ١-٨]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا

خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٧] من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال صلى الله عليه وسلم: «من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أو لِيَصْمُتْ»[1]. وقال: «لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2]، وقال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»..»[3].

ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: «الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خيرٍ، أو يُنفرهم من شرٍ، يجعل ذلك مقتضى الإيمان

(١) صحيح البخاري: باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم ٥٦٧٢.
(٢) صحيح البخاري: باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.
(٣) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٠٠.

المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: (يا أيها الذين آمنوا) ثم يذكر بعدُ ما يُكلفهم به، مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠] ...، وقد وضح صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أن الإيمانَ القوي، يَلِدُ الخُلُقَ القويَّ حَتْماً، وأن انهيار الأخلاق مَرَدُّهُ إلى ضَعف الإيمان، أو فُقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته... فالرجلُ الصفيقُ الوجه، المعوجُ السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبه لأحد، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»[1]!.

والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : «والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ قِيلَ وَمَنْ يا رَسُولَ اللَّهِ قال الذي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بوائقه»[2]، وتجد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة والهذر ... وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتي ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله..»[3].

(١) صحيح الأدب المفرد: ١/ ٤٩٩ رقم ٩٩١؛ صحيح الجامع الصغير للألباني: رقم ١٦٠٣.
(٢) صحيح البخاري: باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم ٥٦٧٠.
(٣) خلق المسلم: ٩-١٠.

إذاً فالدين هو مصدر الأخلاق الفاضلة، وهو الرقيب عليها، وهو المقوِّم لها إذا انحرفت، والدين والأخلاق متلازمان لإقامة أية مدنية فاضلة يطمح إليها الإنسان.

ثانياً: الشمول:

تتنوع الأخلاق الإسلامية وتتسع لتشمل جميع المجالات، ومن هذه المجالات:

١-خُلُق مع الله ومع النبي عليه الصلاة والسلام: وردت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تبين أن خُلُق المسلم مع الله ومع النبي عليه الصلاة والسلام يتمثل في السمع والطاعة، والتسليم والرضا بما جاء به. من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[النور: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات: ١]، وكذلك تعظيم شعائر الله بتعظيم كتابه، وتعظيم بيوته، وتعظيم حرماته، والنصح لله ولكتابه ولرسوله، عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[١]، وتعني أن عماد أمر الدين النصيحة، وتكون النصيحة لله بتقديم حقه على حق الناس، ولكتابه بتعلمه وتعليمه، وتفهم معانيه، والعمل بما فيه، والدفاع عنه، ولرسوله بتعظيمه

(١) صحيح مسلم: باب بيان أن الدين النصيحة، رقم ٥٥.

ونصرة دينه، وإحياء سنته بتعلمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه[١].

٢-خُلُق مع أولياء الأمور: ويتمثل في طاعة أوامرهم في المعروف، وبذل النصح لهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[النساء: ٥٩]، وكما في رأينا الحديث السابق أن من الدين: النَّصِيحَةُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وتعني إعانتهم على ما حملوا القيام به من المسؤوليات، وتنبيههم عند الغفلة، وجمع الكلمة عليهم، ودفعهم عن الظلم بأحسن أسلوب وألطف عبارة[٢].

٣-خُلُق مع عامة المسلمين: النصوص في بيان ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع المسلم، من الأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية أكثر من أن تحصى. من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[٣]، وكما في الحديث السابق أن من الدين: النَّصِيحَةُ لعامة المسلمينَ، وتعني الشفقة عليهم، والسعي فيما ينفعهم، وكف الأذى عنهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه[٤].

(١) فتح الباري: ١/ ١٣٨؛ شرح السنة للبغوي: ١٣/ ٩٤.
(٢) فتح الباري: ١/ ١٣٨؛ شرح السنة للبغوي: ١٣/ ٩٤.
(٣) صحيح مسلم: باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، رقم ٢٥٦٤.
(٤) فتح الباري: ١/ ١٣٨؛ شرح السنة للبغوي: ١٣/ ٩٤.

٤-خُلُق مع غير المسلم: وردت نصوص عديدة تبين ما ينبغي أن يتحلى به المسلم مع غير المسلم من العدل والإحسان وحسن المعاملة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة:٨]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا من ظَلَمَ مُعَاهِدًا أو انْتَقَصَهُ أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أو أَخَذَ منه شيئا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يوم الْقِيَامَةِ»[1].

والمعاهَد من يعيش في كنف المجتمع المسلم مسالماً.

٥-خلق مع الكبير والصغير: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس مِنَّا من لم يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»[2]، وقوله: (ليس منا) يدل على عِظم وخطورة هذه الجريمة الأخلاقية. فهو ليس على أخلاق المسلمين، ولا على نهجهم ومسلكهم في الحياة، وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين ومسلكهم، فليحذر من عاقبة أمره، والطريق الذي اختاره لنفسه.

وهناك خُلُق مع الوالدين، ومع الأبناء والبنات، ومع الزوج والقرابة، ومع الضيف والمعلم والصديق، ومع البهائم والجمادات ... وهكذا.

يقول الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: «قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام

(١) سنن أبي داود: باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، رقم ٣٠٥٢.
(٢) سنن الترمذي: باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم ١٩١٩.

طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مقررة لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخُلُقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلم مكلف أن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم.. الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٦]، واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة:١٣٩]، وحدث أن يهودياً كان له دَيْنٌ على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطل!! فرأى عمر بن الخطاب أن يُؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول، وهَمَّ بسيفه يبغي قتله. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أسكت عمر قائلاً: «أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحُسن التقاضي، وتأمرني بحُسن الأداء»[1]، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجر أو كافر، قال عليه الصلاة والسلام: «دعوة المظلوم مُستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على

(١) المستدرك للحاكم: ٢/ ٣٧ رقم ٢٢٣٧. وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

نفسه»[١]، وبهذه النصوص، مَنع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين.

ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عَن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله ؟ فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٢]...

ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها، ولكن النبي أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخُلُق وحده... ومن أقوال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة»[٣].

إنّ الخلق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها»[٤].

(١) المسند للإمام أحمد: رقم ٨٧٩٥. وإسناده حسن. انظر: فتح الباري: ٣/ ٣٦٠.
(٢) صحيح البخاري: باب الوصاة بالجار، رقم ٥٦٦٩؛ سنن أبي داود: باب في حق الجوار، رقم ٥١٥٢.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية : ٢٨/ ١٤٦.
(٤) خلق المسلم: ٣١-٣٣.

إذاً فميدان الأخلاق في الإسلام يشمل البيت والمدرسة والسوق والمسجد والمصنع والمتجر، وساحات الحرب، وميادين السياسة، والقريب والبعيد.

ثالثاً: الثبات:

يُقصد بالثبات أن الفضائل الأساسية للمجتمع من صدق ووفاء وأمانة وعفة وإيثار مرتبطة بالنظام العام للشريعة، وهي أمور لا يستغني عنها مجتمع كريم مهما تطورت الحياة وتقدم العلم، بل تظل قيماً فاضلة ثابتة، لا تتغير ولا تتأثر بتغير الظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية. ولعل السبب الذي يجعل هذه الأخلاق ثابتة هو:

١-أنها مرتبطة بالفطرة البشرية، وهي تتصف بالثبات، كما في الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة»[١].

غير أن ذلك وحده لا يكفي، فكم من الأمور التي هي في أصلها نابعة من الفطرة إلا أنها تغيرت وانحرفت بفعل الأهواء والمصالح! ومن هنا جاءت أهمية السبب الآخر.

٢- كونها نابعة من الدين الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بما يصلح شأن الإنسان ويحقق له السعادة والخير. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤]، والدين بمثابة السياج الذي يحافظ على متطلبات الفطرة، ويعزز وجودها، ويحميها من الانحراف.

(١) صحيح البخاري: باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣١٩.

ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفة عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى، بتغير مسوغات وجودها، وليس كذلك الأخلاق، لأنها تقوم على أسس ثابتة كالحق والعدل والخير.

رابعاً: الجمع بين الواقعية والمثالية:

فأمّا كون الأخلاق في الإسلام واقعية فتعني أنها؛ عملية وقابلة للتطبيق، ولا يستعصي على أحد تطبيقها وتجسيدها في حياته.

وأما كونها في الوقت ذاته مثاليةً أيضاً فتعني أن في الناس من تتوق نفسه إلى معالي الأمور، ولا يرضى لنفسه بأن يكون كعامة الناس. فهو أبداً يتوق إلى المعالي، وله نفسٌ أبيةٌ تسعى دائماً للتحلي بالفضائل والقيم السامية، ففسح الشرع في ذلك.

فإذاً الإسلام راعى بتشريعه استعدادات هذا وذاك، ولم يحمل الناس على ما لا يطيقون، أو ما يمكن أن تمله نفوسهم وتتقاصر عنه. ومن ثَمَّ فقد شرع العدل، بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، غير أنه حثَّه في الوقت ذاته على الإحسان، بأن يصفح ويتجاوز ويضحي، وهي مرتبة فوق العدل.

قال تعالى في تقرير قاعدة العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨]، وقال جل جلاله في تقرير مبدأ المثالية والإحسان: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الشورى:٤٠]، وقال أيضاً: ﴿وَإِنْ

عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

والأخلاق الإسلامية في هذا تختلف عن الدعوات المثالية التي نادى بها بعض الفلاسفة من أمثال أفلاطون في كتابه الجمهورية الفاضلة، إذ إنها مما لا يطيقها معظم الناس، ولا تستقيم معها حياتهم، وسرعان ما يملونها، وتسأم من فعلها نفوسهم لما فيها من تكلف شديد. قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنْ الْأَعْمَالِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[1].

خامساً: الوسطية:

وتعني أن الأخلاق الإسلامية وسطٌ بين طرفين متضادين. وتتجلى هذه الوسطية والاعتدال في تلبيته لمختلف حاجات الإنسان ورغباته ولكن بعد ضبطها بما يحافظ عليها ويبقيها ضمن دائرة النفع والخير. من ذلك على سبيل المثال:

١-الحكمة: فقد اعتبرها الإسلام فضيلة مطلوبة، وتأتي بين رذيلتين منكرتين، هما: الخِبُّ والبَلَه، قال تعالى في الثناء على الحكمة: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩]، والخِبُّ هو: المبالغة في

(١) صحيح البخاري: باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم ١١٠٠.

الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن، والبله هو: المبالغة في السذاجة والسفه.

٢-السخاء: وهو خلقٌ كريمٌ ويقع بين رذيلتين، هما: الإسراف، والتقتير. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩)، وقال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[الفرقان: ٦٧].

٣- الشجاعة، وهي خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: التهور، والجبن. والتهور هو: الزيادة في الإقدام على الأمور المحظورة التي يوجب العقل الإحجام عنها. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والجبن هو: المبالغة في الخوف والحذر بما تأباه الرجولة والمروءة. قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[التوبة: ٨٧].

٤- العفة، وهي خلقٌ كريمٌ، وتأتي وسطاً بين رذيلتي الشره، والخمود، والشره هو: المبالغة في طلب الشهوة واللذات. والخمود هو: قصور الشهوة عن دفعه نحو تحصيل أسبابها.

٥- الحياء، وهو خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتي الوقاحة أو صفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.

٦- التواضع، وهو خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتي الكِبْر والعلو من جهة، والذِّلة والحقارة من جهة أخرى.

وهكذا فما من صفة أخلاقية جاء بها الإسلام أو أقرها، إلا ونجدها وسطاً تستجيب لدواعي الفطرة في الإنسان، وتحقق له ما فيه المصلحة والخير[1].

(١)انظر: إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٧؛ ميزان العمل: ٢٦-٢٩.

الوحدة الرابعة

وسائل اكتساب الأخلاق

ذكرنا فيما تقدم أنّ من أقسام الخلق ما هو فطري. بمعنى أن في الناس مَنْ تشمله العناية الإلهية فيولد سليم الفطرة، كامل العقل، حسن الخُلق، عالِماً مؤدَّباً بغير معلِّم أو مؤدِّبٍ، كما هو الحال في الأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام الذين اصطفاهم الله واختارهم، وجعلهم بفضله قدوات صالحة تمثل قمة الكمال البشري، وهناك مِنَ الناسِ مَنْ يمُنُّ اللهُ عليه ببعض الصفات الخُلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حين أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة»، فسأل النبي أهما من كسبه، أم جبله الله عليهما؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «بل الله جبلك عليهما».

كما أنّ من الخُلُق ما هو مكتسب، يُحَصِّلُه المرء بجده واجتهاده، ومن خلال وسائل معينة. يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولاً: التدريب العملي:

إنّ أهم الوسائل التي تعين المرء على اكتساب الأخلاق التدريب العملي، وذلك من خلال مجاهدته لنفسه، وحمْلِها على الأعمال التي يتطلبها الخُلُق المطلوب.

فمن أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُق الجود مثلاً، فإنّ سبيله إلى ذلك تَكلُّفَ تعاطي فعل الجود -وهو بذل المال- في البدايات، ثم يستمر على

ذلك البذل، ويطالب نفسه به، ويُواظب عليه تَكَلُّفاً، مجاهداً نفسه، حتى يُصبحَ ذلك خُلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسرَ عليه، ويصير به جواداً.

ومن أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُق التواضع وقد غلب عليه الكِبْرُ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة، يجاهد نفسه فيه، ويتكلفُ إلى أن يصبح ذلك خُلُقاً له وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً.

وفي بيان هذا الدور المهم للتدريب العملي ورياضة النفس على الفضائل يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1]، أي أن من دَرَّبَ نفسه وحملها على ما يريد، وجد الاستجابة له بمشيئة الله. فالبداية تكون من العبد، ثم يأتيه التوفيق من الله تعالى. مَثَلُه في ذلك مثل البدن.

«فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى شيئاً فشيئاً بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخْلَقُ ناقصةً، قابلةً للكمال، وإنما تكمل شيئاً فشيئاً بالتربية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم»[2].

---

(١) صحيح البخاري: باب الاستعفاف عن المسألة، رقم ١٤٠٠؛ صحيح مسلم: باب فضل التعفف والصبر، رقم ١٠٥٣.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين: ٣/ ٦١.

ويمكن توضيح ذلك من خلال مثالٍ ملموسٍ من واقع حياتنا، وهو رغبة أحدنا في أن يصبح (خطاطاً)، فإننا جميعاً نحكم بأن سبيله إلى تحقيق هذه الغاية هو أن يتعاطى الخط، ويواظب عليه مدة طويلة، ويقلد الخطاطين في خطهم، ويتشبه بهم تكلُّفاً في البداية، حتى يصير الخطُ الحسَنُ صفةً راسخةً في نفسه، فيصدر منه طبعاً وسجيةً دون تكلف.

وكذلك من أراد أن يصبح فقيهاً، فإن سبيله إلى ذلك تعاطي فعل الفقهاء، من كثرة القراءة في كتب الفقه، وتكرار النظر والتأمل فيها، حتى ينعكس منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس.

فإذاً يكون تَكَلُّفُ الفعل الخُلُقي ابتداءً، ثم يُصبحُ طبعاً انتهاءً. وهذا ناتج عن العلاقة المتبادلة بين القلب والجوارح. حيث إنَّ كلَّ صفةٍ تظهرُ في القلب، ينعكس أثرها على الجوارح، فتتحرك وفقها. وكل فعلٍ يجري على الجوارح، ينعكس أثره على القلب، ويؤثر فيه. فكلٌ منهما يؤثر في الآخر، ويتأثر به[1].

ومما ينبغي التنبه له أن مرور الزمن وكثرة التدريب يُكَوِّنان لدى المرء شعوراً باللذة عند تعاطيه لهذا الخلق. وعندها فقط يكون قد أصبح خُلُقاً له. فالسخي إذاً هو الذي يشعر باللذة لدى بذله المال، دون الذي يبذله عن كره. والمتواضع هو الذي يشعر باللذة لدى فعله التواضع، ويواظب عليه مواظبة المشتاق[2]، وفي عبادته ومناجاته لله يشعر براحة وطمأنينة لا

(١) انظر: إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٨-٦٠.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٨.

مثيل لها. يؤكد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1].

وهذا الشعور بلذة الطاعة وكره المعصية يزداد بكثرة المداومة والاستمرار، ومن ثَمَّ كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله: أي الناس خير؟ قال: «من طال عُمْره، وحسُنَ عمله»[2]، وهذا ما كان يرغب الأنبياء والصالحين من عباد الله في طول العمر؛ إذ كلما كان العمر أطول، كانت العبادة أكثر، وكان الثواب أجزل، وكانت النفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوم وأرسخ.

ثانياً: الجليس الصالح والبيئة الصالحة:

وذلك من خلال حسن اختيار الأصحاب والأصدقاء الذين يكونون عوناً له على فعل الخير، ومجانبة الشر. إذ كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحدكم من يُخَالِلُ»[3]، والطبع يسرق من الطبع الخير والشرَّ معاً. كما أن على المرء أن يحرص على مجالسة الصالحين، مجالسة من يُذَكِّره بالله، ويرغبه في عمل الخير، وبما عند الله تعالى، وينفره من عمل الشر، وما يجلب له السخط والغضب من الله

(١) المسند: رقم ١٤٠٣٧؛ سنن النسائي: باب حب النساء، رقم ٣٩٣٩ و ٣٩٤٠. وسنده صحيح، انظر فتح الباري: ١١/ ٣٤٥.
(٢) سنن الترمذي: باب ما جاء في طول العمر للمؤمن، رقم ٢٣٢٩ و٢٣٣٠. وقال: حسن صحيح.
(٣) المسند: رقم ٨٤١٧؛ سنن أبي داود: باب من يُؤمر أن يجالس، رقم ٤٨٣٣؛ سنن الترمذي: باب ٤٥، رقم ٢٣٧٨. وقال: حسن غريب. وقال النووي في رياض الصالحين (رقم ٣٦٧): إسناده صحيح.

تعالى. وقد مَثَّل الرسول عليه الصلاة والسلام لذلك بقوله: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[1].

يقول الإمام النووي رحمه الله في تعليقه عليه: «في الحديث تمثيله صلى الله عليه وسلم الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجْرُه وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة»[2]، ويقول الشيخ ناصر السعدي رحمه الله: «اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم. ومثل النبي صلى الله عليه وسلم بهذين المثالين، مبيناً أن الجليس الصالح: جميع أحوالك معه وأنت في مغنمٍ وخيرٍ، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك إما بهبة، أو بعوض، وأقل ذلك مدة جلوسك معه، وأنت قرير النفس برائحة المسك، فالخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر، فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك، فيحثك على طاعة الله، وبر الوالدين، وصلة الأرحام،

(١) صحيح البخاري: باب المسك، رقم ٥٢١٤؛ صحيح مسلم: باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم ٢٦٢٨.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٦/ ١٧٨.

ويبصرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضاً إلى الخير أو إلى ضده، وأما مصاحبة الأشرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنا، وهم مضرة من جميع الوجوه على من صَاحَبَهُمْ، وشَرٌ على من خالطهم، فكمْ هلك بسببهم أقوامٌ! وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون، ومن حيث لا يشعرون! ولهذا كان من أعظم نِعم الله على العبد المؤمن أن يوفقه لصحبة الأخيار، ومن عقوبته لعبده أن يبتليه بصحبة الأشرار، صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين، صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، وصحبة الأشرار تحرمه ذلك أجمع: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان٢٧- ٢٩]، إنّ أقل ما تستفيده من الجليس الصالح - وهي فائدة لا يستهان بها - أن تنكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعايةً للصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعاً عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك، وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال

ينفعك اتصالك بهم، وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصى. وحسب المرء أن يعتبر بقرينه، وأن يكون على دين خليله»[1].

ويؤكد ما أسلفناه من أثر البيئة الفاسدة أو الصالحة على المرء، قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ؛ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ»[2]، فقد طالبه الرجلُ العالِمُ بتغيير بيئته الفاسدة، قال النووي: «قال العلماء: في هذا استحبابُ مفارقة التائب المواضعَ التي أصاب بها الذنوب، والأخدانَ المساعدين له على ذلك، ومُقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صُحبة أهلِ

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار: ١٥٦-١٥٧ شرح الحديث ٦٨.
(٢) صحيح البخاري: باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٢٨٣؛ صحيح مسلم: باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم ٢٧٦٦.

الخيرِ والصلاحِ والعلماءِ والمتعبدين الورعين، ومنْ يُقتدى بهم ويُنْتفَعُ بصحبتهم»[1].

ويؤكد هذا المعنى أيضاً قول النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ»[2]، فالحديث يبين الدور الكبير، والتأثير البالغ للبيئة المحيطة بالمرء في اكتساب الأخلاق، وأنه كلما كانت البيئة ألصق بالمرء، وأكثر ملازمة له، كان أثرها عليه أعظم.

ثالثاً: القدوة الحسنة:

الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ومحاكاته، فالضعيف يقلد القوي، والصغير يقلد الكبير، والفقير يقلد الغني، ممن نال إعجابه، واستحوذ على رضاه، وهذا أمرٌ واقعٌ ومحسوسٌ في دنيا الناس، لا يتجادل فيه اثنان، وقد قصَّ الله علينا في كتابه العزيز حال المشركين، ونبَّه إلى أن الذي قادهم إلى الضلال والكفر إنما هو تقليدهم للآباء والأسلاف من غير تَبَصُّرٍ وإعمالٍ للعقل. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]ـ فالمنكر عليهم ليس مجرد التقليد، وإنما التقليد القائم على التبعية العمياء، وعلى تعطيل العقل! ولو كان قائماً على الفِكْر

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧/ ٨٣.
(٢) صحيح البخاري: باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣١٩؛ صحيح مسلم: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم ٢٦٥٨.

وحُسْن الاختيار لكان مقبولاً، بل مطلوباً كما في سير الأنبياء السابقين عليهم السلام التي قصها الله علينا، ثم قال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠]، فأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم في ملاقاتهم لأنواع الابتلاء، وصبرهم على الشدائد، وتحملهم للأذى في سبيل الدعوة، فما كَلُّوا ولا مَلُّوا ولا يئسوا[1]، كما أنّ الله سبحانه قص علينا كثيراً من جوانب حياة الرسول (كتعظيمه لله، ومحبته وإخلاصه له، وخشيته منه، ورأفته ورحمته بالعباد...) وأثنى على أخلاقه العظيمة، وأمر الأمة المسلمة بالاقتداء به عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١]، لقد اختاره الله قدوة ومثلاً كاملاً للطامحين في الوصول إلى الكمال البشري، ولئن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه، فإنّ سيرته العطرة قد حُفِظتْ لنا، وفيها ما يكفي أن يكون شاهداً على سمو روحه، وكمال نفسه، ورفعة أخلاقه، لنتمكن من التأسي به، وتقوم علينا الحجة.

إنّ الشخصية القيادية تفرض نفسها على الآخرين، وتنتزع منهم الإعجاب رغماً عنهم، وإن ميادين الحياة التي يمكن من خلالها أن تفرض هذه الشخصية أو تلك نفسها على الآخرين كثيرة جداً، فهذا في الشجاعة، وذاك في سداد الرأي والحكمة، وآخر في التربية، وآخر في الإحسان والإيثار وآخر في كظم الغيظ، وهكذا.

(١) التفسير الكبير للرازي: ٦/١٦٦.

وإنّ الأسباب التي تدفع الناس للتأسي بالقدوة في اكتساب الفضائل كثيرة، منها:

١-القدوة الصالحة محل تقدير وإعجاب الناس، وهو ما من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من هذا التقدير والإعجاب إلى تقليد القدوة ومحاكاته لعله يصبح يوماً ما مثله، فيندفع لتقليده، ومع مرور الوقت يتحول ذلك لديه إلى خلق مكتسب.

٢-إن وجود القدوات الصالحة، والنماذج الطيبة الراقية، يعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل أمرٌ ممكنٌ، وهو ما يدفعهم إلى محاولة التخلق بمثل أخلاقهم.

٣-النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية، فمهما حثَّ أحدنا الناس على الصبر والتضحية سيبقى تأثيره قليلاً بالمقارنة مع موقف عملي يُبتلى فيه أحدُنا، فيظهر الصبر والجلد والتضحية، وكثيراً ما يتردد على الألسن مقولة: (الرجال مواقف)، وموقفٌ واحدٌ قد يرفعُ المرءَ أو يسقطه.

إنّ الناظر في سير العظماء لن يجد لهم بالضرورة خطباً بليغةً، أو محاضراتٍ منمقةٍ، وإنما يجد المواقف. فمن ينظر إلى سيرة أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم مثلاً، فإنه سيجد أن أكثر ما يُعرفُ ويُشتهَرُ عنهم، مواقفهم الحاسمة في نصرة الدين، ووقوفهم الحازم في وجه أعدائه.

العابدين، والقادة الأفذاذ الفاتحين، والمربين الناجحين؛ لتتحرك الهمم نحو التأسي بهم، والسير على نهجهم، والتخلق بأخلاقهم.

رابعاً: الضغط الاجتماعي:

ونعني به المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويُلزمهم بفضائل الأخلاق. وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذاك، يحتاجهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام. فإن أقدم على تصرف غير أخلاقي، فإنه سيجد من يحاسبه على سلوكه ذاك، وسيشعره بأن سلوكه غير مقبول، وأنّ عليه أن لا يعاوده، ويوماً بعد يوم مع هذه الرقابة من المجتمع، ومع الضغط الذي يشكله على السلوك المنحرف، فإن صاحبه سيهجره، وسيبدله بسلوكٍ مقبول، يجلب له الرضا والاحترام والتقدير ممن حوله، وسينتهي الأمر باستقامة خلقه.

ومما يجدر ذكره أن الضغط الاجتماعي يختلف عن البيئة الصالحة التي سبق الحديث عنها، إذ البيئة تقتصر على أولئك الذين يعايشهم المرء بشكل مباشر، وبصورة مستمرة، وأما الضغط الاجتماعي فهو أعم؛ إذ إنه يمتد ليشمل المجتمع كله، بمختلف طبقاته وأطيافه وفئاته، ومن خلال مختلف وسائل الإعلام من جرائد ومجلات وقنوات وإذاعات وخطب ومواعظ وحوارات، فيكون مسؤولاً أمامها جميعاً بما تُكَوِّنه من رأيٍ عام من القرَّاء والمستمعين على امتداد البلاد أو العالم الإسلامي لمحاسبة المنحرف.

إنّ أكثر ما يعرفه الناس عامة من سيرة أبي بكر رضي الله عنه، صحبته للنبي في هجرته، وتضحيته ببذل النفس والمال فداءً للرسول صلى الله عليه وسلم ولدعوته. وكذا ثباته على الحق برباطة جأش يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله في الصحابة: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ومثل ذلك وقفته الحازمة في وجه المرتدين وفي وجه مانعي الزكاة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: أينقص الدين وأنا حي، و الله لو لم يخرج إليهم أحدٌ لقاتلتهم بسيفي، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

وإنّ أكثر ما يُعرفُ من سيرة الإمام أحمد بن حنبل امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرةً للحق حتى قال فيه علي بن المديني رحمه الله: «إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة»[1].

ومما قيل في التأكيد على الأثر البالغ للفعل: «عَمَلُ رجلٍ في ألف رَجُل، أبلغُ من قولِ ألفِ رجلٍ في رجل»[2].

إنّ من واجب المصلحين والدعاة المربين إبراز النماذجَ الصالحةَ من أسلافنا من الصحابة والتابعين، وسير العلماء الربانيين، والزهاد الأتقياء

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١١/ ١٩٦. وهو شيخ الإمام البخاري، وكان يقول فيه : ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني.
(٢) التفسير الكبير: ٣/ ٤٥.

وهناك نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنة تؤصل لهذه المسؤولية، نذكر منها:

-قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[المائدة: ٧٨-٨١]، ثُمَّ قَالَ: كَلاَّ وَاللهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا»[1].

فالحديث يبين وجوب الاستمرار في إنكار المنكر، واستمرار الضغط على مرتكبه من مختلف أبناء المجتمع حتى يرتدع ويَكُفَّ عن فعله الشائن، وإلا حلَّ بنا ما حلَّ ببني إسرائيل من العقوبة والعياذ بالله.

(١) سنن أبي داود: باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٣٦؛

-قوله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَمِيعاً»[1].

ومعنى القائم في حُدُودِ الله: المدافع عنها، وهو عكس الواقع فيها. والحديث يؤكد أيضاً مبدأ المَسؤولية الجماعية، ويشبه أفراد المجتمع بمختلف فئاتهم بالراكبين في سفينة واحدة، حيث يجمعهم مصير واحد، وأن الغرق والهلاك إذا حلَّ بهم فلن يقتصر على البعض دون البعض، بل سيشمل الجميع، المنحرف لانحرافه، وغيره لسكوته عن الإنكار، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾[الأنفال: ٢٥].

ومع مرور الزمن والكف عن الأخلاق السيئة خوفاً من ضغط المجتمع تختفي تلك الأخلاق من حياة أصحابها، ويحل محلها الأخلاق الحميدة.

خامساً: سلطان الدولة:

ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردع، وأجهزة رقابة ومحاسبة. فإنها حين تحاسب المنحرف وتعاقبه على تصرفاته غير

(١) صحيح البخاري: باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم ٢٣٦١.

الأخلاقية تجعله يكف عنها. وفي ذلك يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إنّ الله لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآن»[1]، أي أن بعض الناس قد لا تردعه نداءات كتاب الله، وما فيه من الترغيب والترهيب، لأن الضعف قد استبد بإيمانهم، وأصبحت قلوبهم ميتةً أو قاسية. وهؤلاء إنما يردعهم الرهبة من السلطان، والخوف من العقوبة. ويوماً بعد يوم، ومع مرور الزمن، يتحول هذا الامتناع القسري عن فعل المنكر إلى خُلُقٍ لصاحبه، ويحسُن خُلُقه[2].

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٨/ ١٠٧.
(٢) للوقوف على هذه الوسائل بتوسع انظر: الأخلاق الإسلامية للشيخ الميداني: ١/ ٢٠٧-٢٢١.

الوحدة الخامسة

(الإلزام والمسؤولية والجزاء الأخلاقي)

يرتبط كلٌ من الإلزام والمسؤولية والجزاء ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. بمعنى أن الإلزامَ يكونُ أولاً -بأن يَفرضَ الشرعُ علينا سلوكاً معيناً- فَتَتْبَعُه المسؤوليةُ وتَحمُّل الالتزام، ثم يَتْبَعُهما الجزاءُ إما مكافأةً أو عقوبةً. وفيما يلي بيانٌ موجزٌ بكلٍ منها:

أولاً: الإلزام الخلقي:

تعريف الإلزام الخُلُقي: الإلزام بصورة عامة هو الفرض والإيجاب، أي ما فرضه الشرع وأوجبه علينا من أمرٍ أو نهي، سواءٌ أكان ذلك في باب العقائد، أم العبادات، أم المعاملات، أم الأخلاق... .

وفي باب الأخلاق يمكن أن يُعَرَّف الإلزام بأنه: تكليفٌ بتشريع خُلُقي.

أو بعبارة أخرى: أمرٌ صادرٌ من الشرع للمكلفين بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم.

أي أنه أمرٌ من الله سبحانه، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، للبالغِ العاقلِ، يوجب عليه التحلي بخُلُقٍ محمودٍ كالصدقِ والعدلِ ونحوها، أو الابتعادِ والتخلي عن خُلُقٍ مذمومٍ كالكذبِ والرياءِ ونحوها.

مصادر الإلزام الخلقي:

إنّ مصدر الإلزام الخلقي -كغيره من الأحكام الشرعية- إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف: ٤٠]، وقال جل جلاله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف: ٥٤]، والعقولُ وإنْ كانت تدرك أحياناً الحسن والقبح في الأشياء؛ كأن تدرك أن الصِّدْقَ حَسَنٌ، والكذبَ قبيحٌ، والأمانةَ حسنةٌ، والخيانة قبيحةٌ، إلا أن مناط الثواب والعقاب هو الشرع، وليس العقل، فإن التشريع حقٌّ لله وحده، ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر: ٧]، وقال أيضاً: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[آل عمران: ٣٢]، فاتباعنا لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام إنما هو استجابةٌ وامتثالٌ لأمر الله سبحانه. وقد بعثه الله إلينا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، وأقام بهما الحجة على العباد. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥].

العوامل التي تعين على تحقيق الالتزام:

ذكرنا أن مصدر الإلزام هو الشرع، غير أن هناك أموراً تعين على تحقيق الالتزام في حياة الناس، وهي متفرعة عن الشرع، ومنضبطة به. وتتمثل في عوامل داخلية: (وهي: الإيمان والعقل والفطرة والضمير الخلقي). وعوامل خارجية: (وهي: المجتمع والسلطة الحاكمة).

العوامل الداخلية للإلزام: وتتمثل كما أسلفنا آنفاً في:

١-الإيمان بالله وباليوم الآخر: إن كثيراً من الممارسات الخلقية الحميدة لا تقوم إلا على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر، والطمع بالثواب والرضا من الله تبارك وتعالى وليس من البشر، وذلك كما في مقابلة الإساءة بالإحسان، والصبر على الظلم مع القدرة على الرد، والإنفاق على الأيتام والمحتاجين من غير انتظار الجزاء منهم، والتضحية بالمال مع شدة الحاجة إليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان:٨-٩].

يقول ابن القيم رحمه الله: «الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه»[(١)].

٢-العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعةً ومفيدةً أقْدَمَ عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارةً أو أليمةً أحجمَ عنه، أي أن العقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على التصرفات الأخلاقية الحميدة، والإحجام عن التصرفات المشينة، فالعقل يقود صاحبه إلى الخلق الحميد، وتعطيله يقوده إلى العكس، وفي هذا جاء إخبار الله عن أهل النار بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[الملك: ١٠]، يقول ابن القيم رحمه الله: «أما العقل فقد وضع الله سبحانه في

(١) مدارج السالكين لابن القيم: ٣/ ٢٦٥.

العقول والفِطَرِ استحسانُ الصدقِ والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الخَلْق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصر المظلوم، والإعانة على نوائب الحق، وقِرى الضيف، وحمل الكَلِّ، ونحو ذلك. ووضع في العقولِ والفِطَرِ استقباحُ أضداد ذلك»[1].

٣-الفطرة: الإنسان بفطرته السوية السليمة يهتدي إلى الأخلاق الحميدة، ويرتاح لها قلبه وضميره، فالعفة والسخاء والحياء والصدق والشجاعة والإحسان والحلم والأناة كلها قيم أخلاقية راقية تهفو إليها الفِطَر السوية، وتسعى للتحلي بها، على العكس من أضداد تلك الصفات كالخِسَّة وصفاقة الوجه، والجبن، وبذاءة اللسان فإن الفِطَر السليمة تستقبحها وتنفر منها، والإسلام دين الفطرة، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الرُّوم: ٣٠]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: واقرؤوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[2].

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم: ٢/ ١٣٨.
(٢) صحيح البخاري: باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣١٩.

يقول ابن القيم: «والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما أصل السعادة، أحدهما: أنْ خَلَقَهم في أصل النشأة على الفِطرة السليمة، فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها...، فإذا تركت النفس وفطرتها لم تُؤْثِرْ على محبة باريها وفاطرها وعبادته وحده شيئاً، ولم تشرك به، ولم تجحد كمال ربوبيته، وكان أحبَّ شيءٍ إليها، وأطوعَ شيءٍ لها، وآثر شيء عندها»[1].

٤-الضمير أو الوازع الديني: ونعني به ذلك الشعور الخفي الذي نحس به في أعماق نفوسنا، يناديا ويدفعنا إلى ممارسة فعل أو الكف عنه، وحين نستجيب له يغمرنا شعور عارم بالراحة واللذة. وأما إذا تجاهلناه حصل معنا العكس تماماً، فنشعر بالانقباض والألم النفسي (ويسمى بوخز الضمير)، ونلوم أنفسنا على ذلك التقصير، ولا نريد أن يطلع عليه أحد[2]، وهذا الضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سِنِي حياته، ومن خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به، ومن هنا كان دور الدين قوياً بل أساساً في نشأته وصياغته في المجتمع الإسلامي، ولعل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه الناس»[3]، ما يشير إلى هذا الضمير الخفي، أو الوازع الديني الذي يكون رقيباً على تصرفات المسلم، فيدفعه إلى طيب الأفعال والأقوال،

(١) شفاء العليل لابن القيم: ١٧٣.
(٢) انظر: علم الأخلاق الإسلامية لبالجن: ٢٣٥، ٣٠٨.
(٣) صحيح مسلم: باب تفسير البر والإثم، رقم ٢٥٥٣.

ولو لم تكن نصوص الشرع آمرةً بها، وتكفه عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهيةً عنها.

ثانياً: العوامل الخارجية: وتتمثل في:

١-المجتمع: أمر الله سبحانه جماعة المسلمين أن يراقبوا سلوك الأفراد داخل المجتمع، وأن يأخذوا على يد الشارد منهم، والمنحرف عن جادة الحق، وأن يعاقبوه إذا ارتكب من المحظورات ما يستدعي معاقبته ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[النور: ٢]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

فالأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم؛ فتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، وتأخذ على يد الظالم والعابث، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرورها. قال تعالى محذراً من ذلك: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[الأنفال: ٢٥].

٢-السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة -والمتمثلة بولي الأمر أو من ينوب عنه- هو حملُ الناسِ على الالتزام بحدود الشرع

(١) صحيح مسلم: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم ٤٩.

الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بالأخلاق النبيلة، والابتعاد عن السلوك المنحرف، وهو ما عبر عنه الإمام الماوردي رحمه الله بأربع كلمات فقال: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[1]، وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وسياسة الدنيا تكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها. ولا شك أن الإمام (أو ولي الأمر) لن يستطيع أن يحقق ذلك كله بمفرده، بل لا بد من معاونة الجهاز المشارك له في إدارة البلاد، والذي يمثل بمجموعه السلطة الحاكمة.

خصائص الإلزام الخُلُقي:

يمتاز الإلزام الخلقي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:

أ-أنه إلزام بقدر الاستطاعة، فلا تكليف إلا بما يُطاق. قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة:٢٨٦]، وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخلق القويم.

ب-أنه إلزام بما فيه يُسر على الناس، ويسهل تطبيقه. ومن ثَمَّ فلا تكليف بما فيه حرج أو مشقة لم تعتدها نفوس الناس. قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[الحج: ٧٨].

(١) الأحكام السلطانية: ٥.

ج-أنه إلزام روعيت فيه الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء ذوي الأعذار من العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد. قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[الفتح: ١٧]، وكما في الترخص بالتلفظ بالكفر باللسان مع بقاء القلب مطمئناً بالإيمان، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾[النحل: ١٠٦][1].

ثانياً: المسؤولية الخلقية

تعريف المسؤولية: إذا صدر الإلزام من طرفٍ، نتج عنه بالضرورة مسؤولية الطرف الآخر عمَّا أُلزم به- وإلا لم يكن إلزاماً، بل اختياراً، ويكون تسميته بالإلزام خطأً.

وقد عرفت المسؤولية بأنها: التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً[2]، أو: تحمل الشخص النتائج المترتبة على ما التزم به من قولٍ أو عملٍ أو تركٍ[3].

شروط المسؤولية: ليس كلُّ إنسانٍ مسؤولاً عن أفعاله وأقواله، بل هناك شروط لابد من توافرها حتى تترتب المسؤولية على الفاعل، ويمكن إجمالها فيما يلي:

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ٢٤٠-٢٤٤.
(٢) المعجم الوسيط: كلمة (المسئولية): ١/ ٤١١.
(٣) انظر: علم الأخلاق الإسلامية: ٢٥٢.

١-البلوغُ: وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه، لقصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع.

٢-العَقْل: وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية، لأنَّه لا يعقِل أمر الشرع ونهيه. ودليل الاثنين قول النبي صلى الله عليه وسلم: «رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ»[1].

٣-الاختيار: أي أن يكون العمل نابعاً من إرادته، حراً مختاراً فيه؛ وإلا فلو كان مكرهاً على العمل، لم يتحمل صاحبه مسؤولية تصرفه؛ لأنه بذلك يكون قد تحول إلى آلة لتنفيذ الفعل، ولا يُنسب الفعل إليه. قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾[النحل: ١٠٦]، فبين أن الإثم مرفوع عن المكره ولو نطق بكلمة الكفر مادام يجد قلبه مطمئناً بالإيمان، وفي الحديث أيضاً يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ وَضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيَانَ وما استُكْرِهُوا عليه»[2].

(١) سنن أبي داود: باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً، رقم ٤٤٠١ - ٤٤٠٣؛ سنن الترمذي: باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، رقم ١٤٢٣. وقال: "حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي من غير وجه عن علي، والعمل على هذا عند أهل العلم". وانظر مختلف رواياته في فتح الباري: ١٢/ ١٢١-١٢٢.
(٢) سنن ابن ماجه: باب طلاق المكره والناسي، رقم ٢٠٤٢-٢٠٤٤. حسنه النووي. انظر: فيض القدير: ٢/ ٢٦٧؛ كشف الخفاء: ١/ ٥٢٢-٥٢٣.

٤-النية، إذ المسؤولية الحقيقية عند الله إنما هي على نية وقصد المرء دون ظاهر سلوكه. بمعنى أن العمل لو صدر من الشخص بإرادته، ولم يكن ينوي النتيجة التي ترتبت عليه، فإن الله سبحانه يحاسبه على نيته الحقيقية وليس على ظاهرُ عمله. فمن تصدق على فقير ونيته السمعة والرياء فإنه لا ثواب له عند الله، ومن رمى صيداً فأصاب إنساناً، فإن الله لا يؤاخذه على فعله هذا، ولا يحاسبه على أنه قاتل لإنسان معصوم الدم. وأما نحن في الدنيا فنحكم بظاهر الفعل أو القول؛ لأن النية من الأمور الخفية التي لا يطلع عليها غير الله سبحانه. قال الله تعالى في بيان هذه الحقيقة: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، واللغو قول: لا والله، بلى والله، لا يريد الحلف حقيقة، بل سبقه إليه لسانه لتعوده عليه، فهذا لا يؤاخذ، وإنما يؤاخذ من يريد اليمين. عازمٌ عليه قلبه. ويقول النبي صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[1].

٥-العلم بالعمل المطلوب منه وبحكمه الشرعي هل هو محرم أم واجب، أو إمكانية العلم بذلك، بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال، وإلا فلو لم يسأل عن الحكم، ولم يسع لتعلمه، فإنه يؤاخذ قطعاً؛ لأن المرء لا يُعذر بجهله، والجهل عذر في حق من لم تبلغه دعوة الإسلام، ولم يمكنه التعرف عليه، ولا السؤال عنه، ولم يكن منه التقصير، فهذا هو الذي لا يؤاخذه الله، لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

(١) صحيح البخاري: باب بدء الوحي، رقم ١.

٦-كون العمل مما يطاق، أي أنه بمقدوره فعل الشيء أو تركه، وإلا فمتى كان العمل فوق طاقته لم يحاسبه الله عليه، وتسقط مسؤوليته عنه. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦][1].

خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية (أو فردية) بالدرجة الأولى، بمعنى: أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره أياً كان، ومهما كانت درجة قرابته. فلو قتل الأب شخصاً وحُكم عليه بالقصاص، لم يجز الاقتصاص من الولد ولو رضي، بل القصاص على القاتل فحسب، ولو شرب رجلٌ خمراً لم يجلد ولده أو والده عنه ولو طلبوا ذلك ورضوا به، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

غير أنّ هناك مسؤولية أخرى ملقاة على عاتق الفرد، أو مسؤوليات متعددة، منها: المسؤولية التقصيرية عن مَنْ هُم تحت ولايته، كالأب في الأسرة، ومدير الدرسة في مدرسته، وضابط الجيش في قطعته، ومدير الشركة في شركته، وولي الأمر فيما تحت ولايته. يقول عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2].

(١) الأخلاق الإسلامية: ١/ ١١٧-١٣٦.
(٢) صحيح البخاري: باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٥٣.

ومنها ما يمكننا أن نسميها المسؤولية الاجتماعية –أو التكافلية– وهي مسؤولية كل فرد مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف[1]، يقول عليه الصلاة والسلام: «من رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[2].

أنواع المسؤولية:

تنقسم المسؤولية إلى ثلاثة أنواع:

١-المسؤولية الأخلاقية المحضة: وتعني التزام المرء أمام نفسه وضميره بالإتيان بشيء أو الانتهاء عنه.

٢-المسؤولية الاجتماعية: وتعني التزامه تجاه أبناء المجتمع، وما يفرضه المجتمع من قواعد.

٣-المسؤولية الدينية: وتعني التزامه أمام الله تعالى.

ثالثاً : الجزاء الأخلاقي:

تعريف الجزاء الأخلاقي: يُقصد بالجزاء الأخلاقي المكافأة أو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي، سواءٌ أكان ظاهراً كالسجن والضرب، أم

(١) الأخلاق الإسلامية: ١/ ١٣٩-١٤٢.
(٢) صحيح مسلم: باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم ٤٩.

باطناً كتأنيب الضمير، وسواءٌ أكان في الدنيا كالعقوبات المقررة شرعاً على الجنح والجرائم، أم في الآخرة كنعيم الجنة أو عذاب النار.

أنواع الجزاء الأخلاقي:

وتتمثل في: الشعور النفسي، والعقوبات الشرعية، والجزاء الإلهي.

١ – الشعور النفسي:

ونعني به ما يلمسه المسلم من نفسه من الرضا عند الطاعة والألم عند المعصية –وهو ما يسمى برضا الضمير أو وخزه– وقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: «من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك الْمُؤْمِنُ»[1]، وهذا الشعور خاص بالمؤمن، وأما غير المؤمن فلا يبالي بما فعل.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عليه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ فقال بِهِ هَكَذَا، قال أبو شِهَابٍ بيده فَوْقَ أَنْفِهِ»[2].

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٥ وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) صحيح البخاري: باب التوبة، رقم ٥٩٤٩.

٢- العقوبات الشرعية:

وهي العقوبات التي أقرها الشرع لأولئك الذين يتعدون حدود الله. والغاية من هذا الجزاء معاقبة المجرم وردعه، وردع غيره ممن تسوّل له نفسه فعل مثل ذلك. وهذه العقوبات على نوعين:

حدود: وهي جزاءات حددها الشرع على جرائم معينة كحد الزنا، والسرقة، والقذف، ولا مجال للاجتهاد فيها.

وتعزيرات: وهي عقوبات تأديبية يُعَاقَبُ بها من ارتكب جناية لم يحدد الشرع لها عقوبةً.

٣- الجزاء الإلهي:

ونعني به الجزاء الذي يكون من الله سبحانه في الدنيا أو الآخرة.

ففي حالة الطاعة يكون له من الله سبحانه في الدنيا الرضا والحفظ وتيسير الأمور والنصرة والعزة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقال جل جلاله: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[محمد: ٧]، وفي الآخرة له الجنة والكرامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾[الكهف: ١٠٧].

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها يكون له في الدنيا ضنك العيش والمصائب من الله، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ

لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٤]، وفي الآخرة له نار جهنم وله الإهانة والسخط من الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾[البيِّنة: ٦].

الوحدة السادسة

نماذج لجوانب من أخلاق النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم:

قال الله تعالى مادحاً نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤]، وحين سأل سعدُ بن هشام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، قالت: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قال: بَلَى، قالت: فإن خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كان الْقُرْآنَ[1].

أي أنّ أخلاقه عليه الصلاة والسلام كانت تجسيداً عملياً لما جاء به القرآن الكريم من أوامر ونواهي، فكان يرضى لما يُرضي الله، ويَسخط لما يُسخطه. فهو الذي اختاره الله سبحانه ليكون أسوة ومثلاً أعلى للبشرية، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١]، وهو الذي وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وهو الذي قال الله فيه: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[الأحزاب: ٦]، وزكى الله لسانه فقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النَّجم: ٣]، وزكى صدره، فقال: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الانشراح: ١]، وزكى هديه ومنهجه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ

(١) صحيح مسلم: باب جامع صلاة الليل، رقم ٧٤٦.

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[آل عمران: ٣١]، ومن ثَمَّ قال النبي صلى الله عليه وسلم متحدثاً عن نعمة ربه عليه: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[1]، وقال: «أما إني لأخشاكم وأتقاكم لله»[2]، ويقول أنس رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا[3]، وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: ما رأيت أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم[4].

ولن نستطيع في محاضرة ولا في عشرات المحاضرات من إعطاء هذا الموضوع حقه، ولكن ما لا يدرك جله، لا يترك كله، ومن ثم فإننا سنكتفي بعرض نماذج من مختلف جوانب أخلاق نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم.

(١)- عبادة النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي عليه الصلاة والسلام كما وصف نفسه، أتقى الناس وأخشاهم لله، وأكثرهم عبادة وتألهاً، فمن كريم أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه كان شاكراً لربه. تقول عائشة رضي الله عنها: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ الله وقد غَفَر اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال عليه

(١) كشف الخفاء: رقم ١٦٤ وقال: إسناده ضعيف لكن معناه صحيح على ما قاله ابن كثير وغيره.
(٢) سبق تخريجه، رواه البخاري ومسلم.
(٣) صحيح البخاري: باب الكنية للصبي، رقم ٥٨٥٠. صحيح مسلم: باب جواز الجماعة في النافلة، رقم ٦٥٩.
(٤) المسند لأبي يعلى: رقم ٧١٢٠؛ المعجم الأوسط للطبراني: رقم ٦٥٧٨. وسنده حسن. فتح الباري: ٦/ ٥٧٥.

الصلاة والسلام: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[١]، ويصف لنا بعض الصحابة صوراً من عبادة الرسول عليه الصلاة والسلام، تُجلِّي لنا بعض جوانب حالته -بأبي هو وأمي- مع ربه، وبعض معنى قوله: «أما إني لأخشاكم وأتقاكم لله»، من ذلك:

ما يرويه حُذيفة بن اليمان قال: لَقِيتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم بَعد العَتَمَةِ، فقلتُ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي أَنْ أَتَعَبَّدَ بِعِبَادَتِكَ، فَذَهَبَ وَذَهَبْتُ مَعَهُ ...، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ قَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ سَأَلَ، وَلاَ آيَةِ خَوْفٍ إِلاَّ اسْتَعَاذَ، وَلاَ مَثَلٍ إِلاَّ فَكَّرَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمُ»، وَيُرَدِّدُ فِيهِ شَفَتَيْهِ حَتَّى أَظُنَّ أَنَّهُ يَقُولُ وَبِحَمْدِهِ، فَمَكَثَ فِي رُكُوعِهِ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى» وَيُرَدِّدُ شَفَتَيْهِ فَأَظُنُّ أَنَّهُ يَقُولُ وَبِحَمْدِهِ، فَمَكَثَ فِي سُجُودِهِ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ نَهَضَ حِينَ فَرَغَ مِنْ سَجْدَتَيْهِ، فَقَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ثُمَّ اسْتَفْتَحَ آلَ عِمْرَانَ لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ سَأَلَ، وَلاَ آيَةِ خَوْفٍ إِلاَّ اسْتَعَاذَ، وَلاَ مَثَلٍ إِلاَّ فَكَّرَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ كَفِعْلِهِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَمِعْتُ النِّدَاءَ بِالْفَجْرِ، قَالَ حُذَيْفَةُ: فَمَا تَعَبَّدْتُ عِبَادَةً كَانَتْ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْهَا[٢].

(١) صحيح البخاري: باب قوله تعالى: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}، رقم ٤٥٥٧. صحيح مسلم: باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم ٢٨٢٠.

(٢) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث للهيثمي: ١/ ٣٤٦ رقم ٢٤١؛ ومسلم في صحيحه بشيء

وكان من شدة خشيته لله يُسمعُ لجوفه وهو يصلي أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء[١]، حتى لكأنه يعاين الحساب، وكان يقول: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[٢]، وكان يكثر من الصيام، تقول عائشة رضي الله عنها: كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، ولم أره صائماً في شهرٍ قط أكثر منه في شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلاً[٣]، وكان يُكثر من الصدقة فلا يكاد يُمسك على شيء، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كان رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ الناس، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضَانَ حِين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان يَلْقَاهُ في كل لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ[٤]، وكان مع كل ذلك ينظر إلى عبادته وشكره لله فيرى نفسه مقصراً في جنب الله، فيزداد تقرباً من الله وشكراً له، وكان يقول في بيان ذلك: «إنه لَيُغَانُ على قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَّ في الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[٥].

الغين هو الغشاوة الخفيفة أو الفتور، أي أنه صلى الله عليه وسلم لكمال عبوديته لله، ولكمال محبته وشكره له، كان يرى من نفسه التقصير

من الاختصار. انظر: باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم ٧٧٢. وعند مسلم عن ابن مسعود أيضاً: رقم ٧٧٣.

(١) المسند: رقم ١٦٣١٢؛ سنن النسائي: باب البكاء في الصلاة، رقم ١٢١٤. قال النووي في رياض الصالحين (رقم ٤٥٠): حديث صحيح.

(٢) صحيح البخاري: باب الصدقة في الكسوف، رقم ٩٩٧.

(٣) صحيح البخاري: باب صوم شعبان، رقم ١٨٦٨.

(٤) صحيح البخاري: باب كيف كان بدء الوحي، رقم ٦.

(٥) صحيح مسلم: باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم ٢٧٠٢.

بمجرد الغفلة أو الفتور عن ذكر الله لأي أمرٍ كان، وكان يَعُدُّ ذلك ذنباً فيستغفر عنه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان في حالة ترقي دائم من كمالٍ إلى كمال. وكلما ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها، فاستغفر من الحالة السابقة[1].

(٢)-خلق النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة:

كانت دعوته عليه الصلاة والسلام لجميع الخلق، وكان همه وتفكيره منصبين على كيفية إدخال الهداية إلى قلوبهم، وكان شديد الحزن والأسى لإعراضهم حتى عاتبه الله على ذلك في مواضع متعددة من كتابه العزيز كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[الكهف: ٦]، أي: لعلك يا محمدُ مُهلكٌ نفسكَ وقاتلُها حسرةً وأسفاً على إعراضهم وعدم استجابتهم لدعوتك؟ أي: لا يَعْظُمْ حزنُك وأسفُك بسبب كفرهم[2]، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يُعلم المخطئ والمسيء بأحسن أسلوب، وألطف عبارة، وفيما يلي صورٌ من ذلك:

-روى أبو أُمامة رضي الله عنه قال: إن فتىً شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه. وقالوا: مه، مه. فقال له: «ادنه»، فدنا منه قريباً. قال: «أتحبّه لأمّك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه

(١) فتح الباري: ١١/ ١٠١-١٠٢.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ٢١/ ٦٧؛ تفسير القرطبي: ١٠/ ٣٤٨.

لأمهاتهم»، قال: «أفتحبه لابنتك؟»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس جميعاً يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأختك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس جميعاً يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس جميعاً يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس جميعاً يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه. وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

وهكذا نجد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يُعَنِّفْ على الشاب، ولم يعاقبه، بل دغدغ عواطفه، وحرك الغيرة فيه، فاستجاب له الشاب وسَلَّم.

-وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد! فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه، مه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُزْرِموه، دعوه». فتركوه حتى بال، ثم إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه، فقال له: «إِنَّ هذه الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ من هذا الْبَوْلِ ولا الْقَذَرِ، إنما هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عز وجل وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»، قال: فَأَمَرَ رَجُلًا من الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ من مَاءٍ فَشَنَّهُ عليه[2].

(١) المسند: رقم ٢٢٢١١. قال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط. إسناده صحيح.
(٢)صحيح البخاري:، رقم ٥٦٧٩؛ صحيح مسلم:، رقم ٢٨٥.

ومعنى لا تزرموه: لا تقطعوه، ودعوه يُكمل، فعلى الرغم من أن المسجد بيت الله تعالى، ويجب تعظيمه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ترك الأعرابي يكمل بوله، ثم عَلَّمه برفق، من غير تعنيفٍ ولا ايذاءٍ؛ لأنه دافعه إلى ذلك لم يكن الاستخفاف أو العناد، بل الجهل[1]، ولو عنَّف عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنكار لربما كان ذلك سبباً في صَدِّه عن دين الله، وحرمانه من الهداية، وفي هذا درس بليغ لنا في الدعوة إلى الدين بالرفق واللين، وحسن القول والمعاملة، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢]، وقال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

(٣)-رحمة النبي صلى الله عليه وسلم:

كان الرسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة من الله للناس كافة؛ مؤمنهم وكافرهم، صالحهم ومسيئهم، وذلك بما حمله من هداية وتشريع وإرساء لقيم الحق والعدل. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الانبياء:١٠٧]، بل جعل الله وجوده صلى الله عليه وسلم بين ظهراني قومه ضمانة أمانٍ لهم من الهلاك في الدنيا على الرغم من بقائهم على شركهم وعدم إيمانهم بدعوته. وما ذلك إلا لكرامته على الله. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[الأنفال:٣٣]، كما أنه صلى الله

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ٣/ ١٩١.

عليه وسلم سيكون رحمة للبشرية جميعها في الحياة الآخرة، حيث ستشملهم شفاعته الكبرى لإراحتهم من هول الموقف وبدء الحساب[1].

وعندما طلب منه بعض أصحابه أن يدعو على المشركين أجابهم بقوله: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بُعثتُ رحمة»[2]، وعلى الرغم من إيذائهم له في غزوة أحدٍ حيث كسروا رباعيته وشجوا رأسه وسال الدم على وجهه الشريف فإنه لم يدع عليهم[3]، بل كان يمسح الدم عن وجهه الشريف، ويقول لأصحابه بأن نبياً من الأنبياء تعرض لمثل هذا، فلم يقل سوى: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[4]، وحين سألته السيدة عائشة رضي الله عنها هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «نعم؛ يوم العقبة، حين جاءه جبريل وملك الجبال عليهما السلام، وقال له ملك الجبال: إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الْأَخْشَبَيْنِ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلَابِهِمْ من يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً»[5].

(١) صحيح البخاري: باب كلام الرب يوم القيامة مع أنبيائه وغيرهم، رقم ٧٠٧٢.
(٢) صحيح مسلم: باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم ٢٥٩٩.
(٣) صحيح مسلم: باب غزوة أحد، رقم ١٧٩١.
(٤) صحيح البخاري: باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ولم يصرح، رقم ٦٥٣٠.
(٥) صحيح البخاري: باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت، رقم ٣٠٥٩.

وقد بلغ من رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته أن سأل الله أن يجعل سَبَّهُ ولعنهُ لِمَنْ أغضبه رحمةً، فقال: «اللهم إنما أنا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أو سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ له زَكَاةً وَأَجْراً»[1].

نعم؛ فلقد ملأ الله قلبَ محمدٍ رحمة، فقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وبلغ من شفقته ورحمته بأمته أن دعا على ولاة الأمور الذين لا يرفقون برعاياهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم من وليَ من أمرِ أمتي شيئاً، فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم، فارفق به»[2]، وقال صلى الله عليه وسلم في بيان فضل الرحمة والحث عليها: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[3].

وفيما يلي نقوم بعرض مشاهد من رحمته عليه الصلاة والسلام:

-أمْرُهُ عليه الصلاة والسلام مَنْ أمَّ في الصلاة بأن يُخفف شفقة ورحمة بالمصلين ورعاية لأحوالهم، فلقد جاءه رجلٌ، فقال: إني لأتأخرُ عن صلاة الصبح مِن أجل فلانٍ مما يُطيل بنا، قال أبو مسعود -راوي الحديث-: ما رَأَيْتُهُ غَضِبَ في مَوْضِعٍ كان أَشَدَّ غَضَباً منه يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قال:

(١) صحيح مسلم: باب من لعنه النبي صلى الله عليه وسلم أو سبه أو دعا عليه، رقم ٢٦٠٠.
(٢) صحيح مسلم: باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم ١٨٢٨.
(٣) المسند: رقم ٦٤٩٤؛ سنن الترمذي: باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم ١٩٢٤ وقال: حديث حسن صحيح.

«يا أَيُّهَا الناس إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ الناس فَلْيَتَجَوَّزْ، فإن خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ»[1].

- بكاؤه عليه الصلاة والسلام على ولده إبراهيم عند مماته في مجتمع كان يعيب مثل هذا الأمر، ويعتبره ضعفاً في الرجال، وربما منافياً للقيم التي جاء بها الدين من المروءة والقوة، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْراً لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَأَخَذَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرضى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[2].

فبين عليه الصلاة والسلام أنّ هذا البكاء رحمة، ومما تقتضيه الفطرة السليمة، وأن الممنوع إنما هو السخط من قضاء الله وقدره، وعدم الرضا بأمره! وهذا شأن الكافر، وأما الحزن والوجد على فقد الولد والحبيب مع الرضا بقضاء الله، والتسليم لأمره، فهو رقة في المشاعر، ورأفة في

(١) صحيح البخاري: باب من شكا إمامه إذا طول، رقم ٦٧٢. وفي (٦٧٣) أن الإمام معاذ بن جبل.
(٢) صحيح البخاري: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم إنا بك لمحزونون، رقم ١٢٤١.

القلب، يحبها الله من عبده المؤمن، لما فيها من إظهار العبودية والافتقار إلى الله.

- ومن صور رحمته عليه الصلاة والسلام أنه كان ذات مرة يقبل سبطه الحسن بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقْرَعُ بن حابسٍ، فقال الأقْرَعُ: إنَّ لي عَشَرَةً من الوَلَدِ ما قَبَّلْتُ منهم أَحَداً! فَنَظَرَ إليه رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قال: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»[1]، وفي حديث آخر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال للأعرابي الذي قال: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ! فما نُقَبِّلُهُمْ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَوَ أَمْلِكُ لكَ أَنْ نَزَعَ الله من قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»[2].

وهذه المشاهد أوردناها من باب التمثيل، وإلا فسيرته العطرة كلها مشاهد لرحمته، ويغنيه عن ذلك كله قول الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة: ١٢٨].

(٤)-صِدْقُ النبي صلى الله عليه وسلم:

كان الصّدق سِمةَ أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وأفعاله وإيمانه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، وهو الرسول صلّى الله عليه وسلّم حيث جاء بالقرآن

(١) صحيح البخاري: باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم ٥٦٥١.
(٢) صحيح البخاري: باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم ٥٦٥٢.

وآمن به، وكذلك آمن أتباعه بما جاء به[1]، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «قد عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ للهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ»[2].

يقول الماوردي رحمه الله في خصاله صلى الله عليه وسلم: الخصلة السادسة: أنه محفوظ اللسان من تحريفٍ في قولٍ، واسترسالٍ في خبرٍ يكونُ إلى الكذبِ منسوباً، وللصدقِ مُجانِباً، فإنه لم يزلْ مشهوراً بالصدْقِ في خبره فاشياً وكثيراً حتى صار بالصدق مرموقاً، وبالأمانة مرسوماً. وكانت قريشٌ بأسرها تَتيقنُ صِدْقَهُ قبلَ الإسلامِ، فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم من كذَّبَه حسداً، ومنهم من كذَّبه عناداً، ومنهم من كذَّبَه استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولاً، ولو حفِظوا عليه كِذْبةً نادرةً في غير الرسالةِ لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة، ومَنْ لَزِمَ الصِدْقَ في صِغَرِه، كان له في الكِبَرِ ألْزَمَ، ومَنْ عَصِمَ منه في حَقِ نفسِه، كان في حقوقِ الله تعالى أعْصَمَ. وحسْبُكَ بهذا دفعاً لجاحدٍ، ورداً لمعاندٍ[3].

ولقد علم القاصي والداني صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قومه حتى إنهم لقبوه بالصادق الأمين وذلك قبل إعلان دعوته، وقبل إعلامهم بأن الله قد أرسله إليهم، وفيما يلي صورتان تؤكدان هذه الحقيقة:

(١) تفسير القرطبي:١٥/ ٢٥٦؛ تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٤.
(٢) صحيح البخاري: باب نهي النبي صلى الله عليه وسلم على التحريم، رقم ٦٩٣٣.
(٣) أعلام النبوة: ٢٩٤.

- اعتراف أعدائه بصدقه قبل إعلانه لدعوته: فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم كنتم مُصَدِّقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١][1].

فانتزع صلى الله عليه وسلم منهم الاعتراف بصدقه، وجعلهم يُقِرُّون به على رؤوس الأشهاد، وأقامَ الحُجة عليهم، ثم أخبرهم بأنه رسولُ الله إليهم، فأبهتهم بذلك! وهذا من عظيم فطنته.

- شهادة الحَبْر اليهودي عبد الله بن سلام رضي الله عنه: حيث قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِّ صلى الله عليه وسلم الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِّ، قَدِمَ رَسُولُ اللهِّ، قَدِمَ رَسُولُ اللهِّ صلى الله عليه وسلم. فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللهِّ صلى الله عليه وسلم، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ،

(١) صحيح البخاري: باب وأنذر عشيرتك الأقربين، رقم ٤٤٩٢.

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[1]، فهذا الحبر بمجرد نظره إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف أنه ليس بوجه كذاب، فآمن به وبدعوته، وأعلن إسلامه.

(٥)-شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم:

لعل أهم وأبرز ما تتجسد فيه شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم مواجهته لقومه وللمشركين من حوله بمبادئ الدين الحنيف وعقائده، والتي تتعارض مع ما ألفوه وتوارثوه عن آبائهم وأسلافهم. وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أنهم سيسعون لإيذائه بكل أصناف الأذى، وسيعلنون عليه وعلى أتباعه حرباً مفتوحة، يجندون لها كل طاقاتهم، ولكنه لم يأبه بكل ذلك، فصدع بالحق ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[الحجر: ٩٤]، وجهر به، وضرب بذلك أروع الأمثلة لأمته في الجهر بالحق، وعدم مداهنة أهل الباطل ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[القلم: ٩]، مهما تحزبوا وجندوا لحربه[2].

يقول سيدنا عليٌّ رضي الله عنه -وهو من هو في بطولته وشجاعته-: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدنى إِلَى القوم مِنْهُ»[3]، ويقول أيضًا: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا

(١) سنن الترمذي: باب ٤٢، رقم ٢٤٨٥. وقال حديث صحيح.
(٢) السيرة النبوية للصلابي: ٢٢٧.
(٣) المسند: رقم ١٣٤٧. قال محققه: إسناده صحيح.

إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْساً»[1]، وقد ورد مثله عن غيره من الصحابة أيضاً.

ومن صور شجاعته صلى الله عليه وسلم:

- سبقه لكشف الأخبار عند الفزع: فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كَانَ رَسُولُ اللهِّ صلى الله عليه وسلم أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ. وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللهِّ صلى الله عليه وسلم رَاجِعاً وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: «لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا»، قَالَ: «وَجَدْنَاهُ بَحْراً أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ»، قال: وكان فَرَساً يُبَطَّأُ[2]، أي أن الفرس وإن كان معروفاً ببطئه لكني وجدته سريعاً، ومِنْ ثَمَّ سبقتُكم إلى الصوت، وليس هناك ما يخيفكم، فارجعوا إلى بيوتكم مطمئنين.

قال النووي معلقاً على الحديث: وفيه فوائدُ، منها: بيانُ شجاعته صلى الله عليه وسلم مِنْ شدةِ عجلته في الخروج إلى العدو قبْل الناس كلهم، بحيث كَشَفَ الحالَ ورجعَ قبل وصول الناس، وفيه بيانُ عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعاً بعد أنْ كان يَبْطأ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: وجدناه بحراً، أي: واسع الجري[3].

(١) المسند: رقم ٦٥٤. قال محققه: إسناده صحيح.
(٢) صحيح مسلم: باب في شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٠٧.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥/ ٦٧-٦٨.

- موقفه صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فعن سيدنا العباس رضي الله عنه قال: شَهِدْتُ مع رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم يوم حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أنا وأبو سُفْيَانَ بن الْحَارِثِ بن عبد الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِّ صلى الله عليه وسلم فلم نُفَارِقْهُ. وَرَسُولُ اللهِّ صلى الله عليه وسلم على بَغْلَةٍ له بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا له فَرْوَةُ بن نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فلما الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ، قال عَبَّاسٌ: وأنا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وأبو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم، فقال رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم: «أَيْ عَبَّاسُ؛ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ»، فقال عَبَّاسٌ -وكان رَجُلًا صَيِّتًا- فقلت بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ، قال: فَوَاللهِّ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حين سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ على أَوْلَادِهَا، فَقَالُوا: يا لَبَّيْكَ، يا لَبَّيْكَ، قال: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ...[1].

وفي بعض الروايات أن رجلاً قال لِلْبَرَاءِ بن عَازِبٍ رضي الله عنهما: أَفَرَرْتُمْ عن رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم يوم حُنَيْنٍ؟ قال: لَكِنَّ رَسُولَ اللهِّ لم يَفِرَّ، إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْماً رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عليهم فَانْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ على الْغَنَائِمِ، وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ، فَأَمَّا رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم فلم يَفِرَّ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لعلى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا النبي لَا

(١) صحيح مسلم: باب في غزوة حنين، رقم ١٧٧٥.

كَذِبْ أنا بن عبد المُطَّلِبْ»[١].

أي أنه صلى الله عليه وسلم لشجاعته، وعظيم ثقته بالله تعالى، وفي اللحظة الحاسمة من المعركة، وقد انكشف لأعدائه، وانهزم من حوله، كان يناديهم بأعلى صوته متحدياً لهم، أنا النبي حقاً، لا أفرُّ، ولا أزول من مكاني. وكان يعرفهم بنفسه بأنه ابن عبد المطلب لأنه شهرته بذلك كان أكثر[٢].

(٦)- عفو النبي صلى الله عليه وسلم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم متخلقاً بالعفو في أكمل صوره استجابة لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[الأعراف: ١٩٩]، ولعل من أروع تلك الصور:

- عفوه عليه الصلاة والسلام عن أهل مكة المكرمة بعد الفتح، مع شدة إيذائهم له ولأصحابه، واضطهادهم، وملاحقتهم إلى الحبشة، والاستيلاء على ديارهم وأموالهم التي تركوها خلفهم في مكة إبَّان هجرتهم. ولكنه عليه الصلاة والسلام حين دخلها فاتحاً، وأمكنه الله من رقابهم، وقف فيهم خطيباً وقال: «يا معشر قريش؛ ما تقولون؟» قالوا: نقول: ابنُ أخٍ، وابنُ عم، رحيمٌ كريمٌ، ثم أعاد عليهم القول، فقالوا مثل ذلك، قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام: «لاَ تَثْرِيبَ

(١) صحيح البخاري: باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم ٢٧٠٩.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٢/ ١١٩-١٢٢.

عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ»، فخرجوا، فبايعوه على الإسلام[١].

-عفوه عليه الصلاة والسلام عن مَنْ هَمَّ بقتله بعد أن أمكنه الله منه: فقد روى جَابِرَ بن عبد اللهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ غَزَا مع رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم قِبَلَ نَجْدٍ، فلما قَفَلَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم قَفَلَ معه، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ في وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَتَفَرَّقَ الناس يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم تَحْتَ سَمُرَةٍ، وَعَلَّقَ بها سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً، فإذا رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم يَدْعُونَا، وإذا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ. فقال: «إِنَّ هذا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وأنا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو في يَدِهِ صَلْتًا، فقال: من يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فقلت: الله. فَهَا هو ذَا جَالِسٌ»، ثُمَّ لم يُعَاقِبْهُ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَجَلَسَ[٢].

ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم عن يوم العقبة وما لاقاه من مشركي قريس، فأرسل الله إليه جبريل وملك الجبال عليهما السلام وعرضوا عليه أن يُطْبِقَ عليهم الْأَخْشَبَيْنِ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى وقال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلَابِهِمْ من يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً»[٣]. فعفا عنهم، رغم الصدِّ والإيذاء الذي لقيه منهم.

وغيرها من الصور كثيرة جداً تزخر بها كتب السنة والسيرة النبوية لا يتسع المقام لذكر المزيد منها، وغرضنا هو التمثيل والتدليل فحسب.

(١) سنن النسائي: قوله تعالى: جاء الحق وزهق الباطل، رقم ١١٢٩٨؛ السنن الكبرى للبيهقي: باب فتح مكة، رقم ١٨٠٥٤.
(٢) صحيح البخاري: باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة، رقم ٢٧٥٣، ٣٩٠٥.
(٣) صحيح البخاري: باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت، رقم ٣٠٥٩.

الوحدة السابعة

(جوانب أخرى من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم)

(٧)-تواضع النبي صلى الله عليه وسلم :

التواضع خلق رفيع، وصفةٌ للمترفع عن حظوظ نفسه، المستسلمِ للحق، المقِرِ بأن كل ما فيه من خلالٍ حميدة إنما هي من الله، وأن ما به من نِعَمِ المالِ أو الجاهِ أو السلطان أو العلم إنما هي من فضل الله عليه، وقد كانَ النبي صلى الله عليه وسلم المثل الكامل للإنسانية في هذا الخُلق، وكل من يقرأ سيرته العطرة يقف على تواضعه الشديد مع الخَلْق، فهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يتميز عن أصحابه بهيئةٍ أو لباسٍ أو مكان جلوسٍ أو غير ذلك مما يتميز به وجهاء الدنيا، يُجيب دعوة الحر والعبد، والغني والفقير، ويجلس على الأرض، ويأكل على الأرض ويحلب الشاة[1]، ويعود المرضى، ويقبل عذر المعتذر. يدخل عليه الرجل ممن لا يعرفُهُ فيسأل أيُّكم محمد؟ والنبيُ بين ظهرانيهم، فلا يعرفه حتى يجيبونه: هذا هو[2].

ونذكر فيما يلي صوراً من تواضعه صلى الله عليه وسلم:

-روى جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ، فكلمه فجعل تُرْعَدُ فرائصه، قال جرير: فقال له

(١) المعجم الكبير للطبراني: رقم ١٢٤٩٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٠): إسناده حسن.
(٢) صحيح البخاري: باب ما جاء في العلم، رقم ٦٣.

النبي: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء»[1]، ثم تلا جرير: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

-وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار، ولقد كان يوم خيبر ويوم قريظة على حمار خطامه حبل من ليف، وتحته إكاف من ليف[2].

-وكان ينهى عن مدحه، وإلقاء ألقاب التفخيم عليه كما هو شأن أهل الدنيا، ويقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله»[3]، فأعظم أوصافه وأحبها إليه؛ هو ما جاء به الشرع، وتَعَبَّدَنا اللهُ به، كما في التشهد.

-وكان يُحذر من الكِبر، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ»، قال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ

(١) سنن ابن ماجه: باب القديد، رقم ٣٣١٢؛ المعجم الأوسط: رقم ١٢٦٠؛ المستدرك: رقم ٣٧٣٣، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٤٢١): إسناده صحيح.
(٢) سنن ابن ماجه: باب البراءةُ من الكبر والتواضعُ، رقم ٤١٧٨؛ سنن الترمذي: باب ٣٢ رقم ١٠١٧وقال: في سنده مسلم بن كيسان الأعور وهو يُضَعف. المستدرك: رقم ٣٧٣٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وركوبه الحمار في صحيح البخاري: باب الردف على الحمار، رقم ٢٨٢٥.
(٣) صحيح البخاري: باب {واذكر في الكتاب مريم..}، رقم ٣٢٦١.

حَسَنَةً. قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النّاس»[١]، وبطر الحق: يعني دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً، وغمط الناس: يعني احتقارهم، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم بَيَّنَ المعنى الصحيح للكِبْر، وصحح المفهوم الخاطئ الذي يعتقده بعض الناس إلى يومنا هذا -إذ يعتبرون الاهتمام بالمظهر ولِبس الجديد والجميل من الثياب والنعال من الكِبر- فبين أن ذلك ليس منه، ولا يتنافى مع خُلُق التواضع، بل هو مما يحبه الله تعالى، وأما الكِبْر فهو عدم الاستسلام للحق، وازدراء الناس.

-لقد بلغ من تواضع النبي صلى الله عليه وسلم، ورغبته في جبر الخواطر أن قال: «لو دُعِيتُ إلى ذِرَاعٍ أو كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أو كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ»[٢]، والكُراع: أقل شأناً من الذراع، وهو ما استدق من ساق الغنم، كناية عن الشيء الحقير.

قال الحافظ ابن حجر: «الحديثُ دليلٌ على حُسن خُلقه صلى الله عليه وسلم، وتواضعه وجبره لقلوب الناس، وعلى قبول الهدية، وإجابة من يدعو الرجل إلى منزله، ولو علم أن الذي يدعوه إليه شيء قليل»[٣].

وليس هذا مجرد قول من النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل دُعي حقيقة إلى خبز شعير وإهالة سنخة فأجاب[٤] من غير تردد، والإهالة السنخة: تعني الدهن الجامد المتغير الريح من طوال المكث، ودعاه خَيَّاطٌ ذات

(١) صحيح مسلم: باب تحريم الكِبر وبيانه، رقم ٩١.
(٢) صحيح البخاري: باب القليل من الهبة، رقم ٢٤٢٩.
(٣) فتح الباري: ٩/ ٢٤٦.
(٤) المسند: عن أنس رقم ١٣٨٨٧. وقريب منه في البخاري: باب شراء النبي بالنسيئة، رقم ١٩٦٣.

يوم لِطَعَام صَنَعَهُ. قال أنس: فَذَهَبْتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم، فَقَرَّبَ خُبْزَ شَعِيرٍ، وَمَرَقًا فيه دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ من حَوَالَيْ الْقَصْعَةِ، فلم أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ بَعْدَ يَوْمِئِذٍ[١].

(٨)-زُهد النبي صلى الله عليه وسلم:

كان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، خَيَّرَهُ الله تعالى بين أن يكون ملكاً نبياً، أو يكون عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً[٢]، كان ينام على الفراش تارةً، وعلى النطع -أي الجلد- تارةً، وعلى الحصير تارةً، وعلى الأرض تارةً، وعلى السرير تارةً على رِماله، وتارةً على كساء أسود. وكان فراشه أدماً، حشوه ليف[٣]، وكان له مِسحٌ -أي لباس من شعر أو ثوب خشن- ينام عليه، يثنى بثنيتين، وثني له يوماً أربع ثنيات، فنهاهم عن ذلك وقال: «ردوه إلى حاله الأول فإنه منعني صلاتي الليلة»[٤].

-قال أنس بن مالك رضي الله عنه: دخل عمر وناس من الصحابة، فانحرف النبي صلى الله عليه وسلم، فرأى عمر أثر السرير في جنبه

(١) صحيح البخاري: باب المرق، رقم ٥١٢٠.
(٢) سنن النسائي: باب الأكل متكئاً، رقم ٦٧٤٣؛ السنن الكبرى للبيهقي: باب ما روي عنه في قوله: أما أنا فلا آكل متكئا، رقم ١٣١٠٥؛ المسند: رقم ٧١٦٠ وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٣) صحيح مسلم: باب التواضع في اللباس...، رقم ٢٠٨٢.
(٤) الشمائل المحمدية للترمذي: ٢٧٠؛ زاد المعاد: ١/ ١٥٥.

فبكى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يُبكيك يا عمر؟» قال: ومالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال الذي أرى! فقال يا عمر: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة» قال : بلى، قال: «هو كذلك»[١].

-وكان من زهده صلى الله عليه وسلم أن النار لم تكن توقد في بيته في الشهر والشهرين مرة، ليس لأنه لا يملك! بل لأنه يُنفقُ ولا يُمسك لنفسه أو لعياله شيئاً من المال الذي يأتيه. فعن عُرْوَةَ عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قالت لِعُرْوَةَ: ابنَ أُخْتِي: إن كنا لَنَنْظُرُ إلى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ، وما أُوقِدَتْ في أَبْيَاتِ رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم نَارٌ! فقلت: يا خَالَةُ: ما كان يُعِيشُكُمْ؟ قالت: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إلا أَنَّهُ قد كان لِرَسُولِ اللهِّ صلى الله عليه وسلم جِيرَانٌ من الْأَنْصَارِ، كانت لهم مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِّ صلى الله عليه وسلم من أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينا[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا، وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً، وكان أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ[٣].

(١) المسند: رقم ١٢٤١٧ وقال المحقق: صحيح لغيره. وانظر أيضاً مجمع الزوائد: ١٠/ ٣٢٦.
(٢) صحيح البخاري: باب فضلها (الهبة) والتحريض عليها، رقم ٢٤٢٨.
(٣) سنن الترمذي: باب ما جاء في معيشة النبي وأهله، رقم ٢٣٦٠. وقال: حديث حسن صحيح.

وليس هذا فحسب؛ بل تقول السيدة عائشة: ما شَبِعَ رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم من خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حتى قُبِضَ[١].

وليس هذا عن قِلّة، ولعدم توافر المال بين يديه! بل لسماحة نفسه، ومزيد ثقته بربه[٢]، ولإعراضه عن الدنيا، وإيثاره لغيره على نفسه؛ وإلا فقد عُرِض عليه أن يكون مَلِكاً نبياً كما أسلفنا، ولو رغب في المال لوجد فيما بين يديه من أموال الغنائم والفيء ما يلبي حاجته ليس لأيام فحسب، بل لأشهرٍ وسنينَ، ولكنه كان يؤثر ما عند الله، يقول خادمه أنس بن مالك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدّخر شيئاً لغدٍ[٣].

وليس معنى هذا النهي عن ادّخار المال أو الاحتفاظ به، بل بمعنى أنه لم يكن يحتفظ بالمال لديه وهو يجدُ مِنْ حوله مَن يحتاجه، بل كان يبادر إلى تقديمه له لسدِّ حاجته؛ لأنه كان يعتبر نفسه خازناً للمال الذي بين يديه، ووكيلاً عليه، وقاسماً له : «إنما أنا قاسم والله يعطي»[٤].

-وكان يشبه إقامته في هذه الدنيا بإقامة المسافر في بلدة نزل بها لبرهة من الزمن، فماذا عساه أن يفعل من أجل إقامته لتلك البرهة من الزمن هناك. يقول عبد اللهِّ بن مسعود: نَامَ رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم على حَصِيرٍ فَقَامَ وقد أَثَّرَ في جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِّ، لو اتَّخَذْنَا لك وِطَاءً،

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في معيشة النبي وأهله، رقم ٢٣٥٧. وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) شرح الجامع الصغير للمناوي: ٢/ ٢٦٤.
(٣) سنن الترمذي: باب ما جاء في معيشة النبي وأهله، رقم ٢٣٦١. وقال: حديث غريب. وقال المناوي في شرح الجامع الصغير(٢/ ٢٦٤): إسناده جيد.
(٤) صحيح البخاري: باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم ٧١.

فقال: «ما لي وما لِلدُّنْيَا، ما أنا في الدُّنْيَا إلا كَرَاكِبٍ استظل تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[1].

(٩)-صبر النبي صلى الله عليه وسلم:

الصبر خُلُق محمودٌ، ومطلوبٌ من كل مسلم ولكن بدرجات متفاوتة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران: ٢٠٠]، وكلما كان الطموح في التقرب إلى الله أكبر، كانت الحاجة إلى الصبر أشد، قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[البقرة: ٤٥]، ومن ثم كانت حاجة النبي صلى الله عليه وسلم إلى التسلح بهذا الخُلُق أعظم، صبرٌ على الطاعة، وقد رأينا كيف كان يعبد الله حتى تتورم قدماه الشريفتان، وصبرٌ عن المعصية، وقد رأينا كيف أنه كان يستغفر الله من خواطر النفس ولحظات الغفلة في اليوم مائة مرة، وصبرٌ على الأذى الذي يأتي من قبل الناس قولاً أو عملاً، وقد كان حظ النبي من هذا النوع من الصبر أيضاً كبيراً، فلقد أوذي كثيراً من المشركين في مكة، ومن المنافقين في المدينة المنورة، ومن صور الإيذاء تلك:

-أُوذي صلى الله عليه وسلم من قِبل قومه مراتٍ ومرات، ولكن أعظم تلك المرات كما أخبر يوم العقبة، فقد لقي منهم قدراً عظيماً من الصدِّ والطرد والأذى، فتوجه إلى ربه يبثُّ إليه شكواه وما يعانيه من كربٍ وشدة، وإذا بجبريل ومعه ملك الجبال يأتيانه من الله سبحانه،

(١) سنن الترمذي: باب ٤٤، رقم ٢٣٧٧. وقال: حديث حسن صحيح.

ليأمرهما فيهم بما شاء، وأخبره ملك الجبال أن معه الإذن بأن يُطبق عليهم الأخشبين -جبلا مكة: أبو قبيس والأحمر- ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى وصبر، وقال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلَابِهِمْ من يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً»[1].

-ومن ذلك ما رواه طارق المحاربي، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلا اللهُ تُفْلِحُوا»، وَرَجُلٌ يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ، وَقَدْ أَدْمَى عُرْقُوبَيْهِ وكعبيه، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: هَذَا غُلامُ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قُلْتُ: فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ. قَالَ: هَذَا عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ[2].

وعن الْحَارِثِ بن الْحَارِثِ الْغَامِدِي قال: قلت لأَبِي: ما هذه الْجَمَاعَةُ؟ قال: هَؤُلاءِ الْقَوْمُ قَدِ اجْتَمَعُوا على صابئ لهم، قال: فَنَزَلْنَا فإذا رسول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يدعو الناس إلى تَوْحِيدِ اللهِ عز وجل، وَالإِيمَانِ بِهِ، وَهُمْ يَرُدُّونَ عليه وَيُؤْذُونَهُ، حتى انْتَصَفَ النَّهَارُ، وَانْصَدَعَ عنه الناس، واقبلت امْرَأَةٌ قد بَدَا نَحْرُهَا، تَحْمِلُ قَدَحًا وَمِنْدِيلاً، فَتَنَاوَلَهُ منها، وَشَرِبَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وقال: «يا بنيَّةُ خَمِّرِي عَلَيْكِ نَحْرَكِ، وَلا تَخَافِي على أَبِيكِ غَلَبَةً وَلا ذُلاً»، قُلْنَا: من هذه؟ قالوا: زَيْنَبُ بنتُهُ[3].

(١) صحيح البخاري: باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت، رقم ٣٠٥٩.
(٢) صحيح ابن حبان: باب ذكر مقاساة المصطفى، رقم ٦٥٦٢؛ المسند: رقم ١٦٠٢٢ و١٦٠٢٣. وقال المحقق صحيح لغير.
(٣) المعجم الكبير للطبراني: رقم ١٠٥٢ و٣٣٧٣. قال في مجمع الزوائد (٦/ ٢١): رجاله ثقات.

-كما أنه عليه الصلاة والسلام أوذي كثيراً من قِبَلِ المنافقين وتكلموا في عرضه، وخصوصاً رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول حين تكلم في السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم صَبَرَ واحْتَسَبَ، ليس عن ضعف أو خوف! ولكن تضحيةً في سبيل الدعوة إلى الله، وتأليفاً للقلوب نحوها، فقد روت كتب السنة أن شجاراً وقع بين المهاجرين والأنصار، فتدخل الرسول وأنهى الشجار، ولكن عبد الله بن سلول سمع بذلك، فاستغل الحادثة للنيل من الرسول والمهاجرين، فقال: أو قد فَعَلُوا! والله لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ منها الْأَذَلَّ، فقال عُمَرُ بن الْخَطَّابِ رضي الله عنه: دَعْنِي يا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هذا الْمُنَافِقِ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «دَعْهُ لَا يَتَحَدَّثُ الناس أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1].

بل إنّ ابنه واسمه أيضاً عبد الله أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه. فقال له صلى الله عليه وسلم: «بل تَرْفقُ به وتُحسن صحبته»[2].

غير أنّ هذا الصبر وهذا الحلم كان يختفي تماماً حين تنتهك حدود الشرع، فكان يتصرف بحزم وشدة ليكون زاجراً ورادعاً للمنتهك

(١) صحيح البخاري: بَاب قَوْلُهُ: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمَدِينَةِ }، رقم ٤٦٢٤.
(٢) فتح الباري: ٨/ ٦٥٠.

لحدود الله. قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح:٢٩].

(١٠)-مِزاحُ النبي صلى الله عليه وسلم:

كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن يمزح مع أصحابه لمؤانستهم، ولإدخال السرور على قلوبهم، وليعلمهم أن في ديننا فسحة، فالنفوس تَمَلُّ وتَسْأَمُ، وتحتاج إلى الترويح والترفيه؛ إلا أنه عليه الصلاة والسلام (لم يكن يقول في مِزاحه إلا حقاً)[1]، ولم يكن يكثر منه؛ لأنه كثرته تُقسي القلب، وتُشغل عن ذكر الله، وعن التفكير في مهمات الدين، وقد تنتهي إلى منازعاتٍ وأحقاد، وتُسقط المهابة والوقار، بل كان يمزحُ على ندرةٍ ولمصلحةٍ، أو لتطييبِ نفس المخاطَب ومؤانسته[2].

وفيما يلي صورٌ من مِزاحه عليه الصلاة والسلام:

-وردَ أنّ امرأةً عجوزاً سألته، فقالت: "يا رسول الله! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أُم فلان، إنّ الجنة لا تدخلها عجوز، فَولَّتْ تبكي، فقال: »أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الواقعة: ٣٥-٣٧]»[3].

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في المزاح، رقم ١٩٩٠. وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) الأذكار: ٢٥٨.
(٣) الشمائل المحمدية: ١٩٧ رقم ٢٤١. وقال العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٩): أخرجه في الشمائل مرسلا، وأسنده ابن الجوزي في الوفا من حديث أنس بسند ضعيف.

– وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رجلاً أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، احمِلْنا على بعير، فقال: «أَحْمِلُكُمْ على وَلَدِ الناقةِ»، قال: وما نَصْنَع بولدِ الناقةِ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «هل تَلِدُ الإبِلَ إلا النُّوقُ؟»[١]، أي أن ذهن السائل انصرف لدى سماعه (ولد الناقة) إلى أن الرسول سيعطيه بعيراً صغيراً لا يصلح للركوب، فاستغرب قائلاً: وماذا سأصنع بالصغير؟ فنبهه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن الكبير أيضاً ولد الناقة، وإلا فمن أين أتى؟.

–وعن أنس بن مالك أن رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر بن حرام ،كان يُهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم الهدية، فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: « إن زاهراً بادينا، ونحن حاضروه»، قال: فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت إليه، فلما عرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم جعل يلزق ظهره بصدره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يشتري هذا العبد؟»، فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسداً، قال: «لكنك عند الله لست بكاسد»، أو قال صلى الله عليه و سلم: «بل أنت عند الله غال»[٢].

(١) سنن الترمذي: باب ما جاء في المزاح، رقم ١٩٩١. وقال: حديث حسن صحيح غريب.
(٢) صحيح ابن حبان: باب المزاح والضحك، رقم ٥٧٩٠؛ شمائل الترمذي: ١٩٦-١٩٧ رقم ٢٤٠.

(١١)–حياؤه صلى الله عليه وسلم:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»[١]، أي: أن لكل دين طبعاً وسجيةً، وطبع هذا الدين وسجيته التي بها قِوامُه وجَمالُه هو الحياء[٢].

وهو خُلُق يخص الإنسان وحده، ومن أفضل خصال الأخلاق وأجلها قدراً نفعاً، ولولاه لم يستر المرء له عورة، ولم يمتنع من فاحشة، بل إن كثيراً من الناس لولا الحياء لم يؤدِّ واجباً، ولم يراع حقاً لمخلوقٍ. فإن من الناس من لا يردعه الدين، وإنما يردعه الحياء من الناس[٣].

وفيما يخص النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان شديد الحياء، حتى قال فيه أَبِو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأنه كان أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وكان إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ[٤]، والخِدر: الستر أو الخلوة. وإنما قال أبو سعيد ذلك: لأن حياء العذراء في الخلوة يشتد أكثر مما لو كانت في غير خلوة، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها، ويضيف أبو سعيد أنه ﷺ لم يكن يواجه أحداً ويصارحه بما يكرهه منه لشدة حيائه، بل كان يتغير وجهه، فيفهم أصحابه كراهيته لذلك الأمر[٥].

(١) سنن ابن ماجه: باب الحياء، رقم ٤١٨١ و٤١٨٢. قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٢١٩): حسن لغيره.
(٢) فيض القدير: ٢/ ٥٠٨.
(٣) مفتاح دار السعادة: ٢٧٧-٢٧٨.
(٤) صحيح البخاري: باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم ٥٧٥١.
(٥) فتح الباري: ٦/ ٥٧٧.

ولم يكن يوجه الكلام لأحدٍ بشكل مباشر أو يسميه باسمه إذا بلغه عنه ما يكرهه، بل يبهم ويعمم، فيقول: ما بال أقوامٍ يصنعون كذا وكذا[١]، لئلا يفضحه أو يجرح مشاعره.

-روى أنس رضي الله عنه أنه: لَمَّا تَزَوَّجَ الرَسُولُ ﷺ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ، دَعَا الْقَوْمَ فَطَعِمُوا، ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، وَإِذَا هُوَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ، فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ؛ فَلَمَّا قَامَ، قَامَ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، لِيَدْخُلَ، فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ؛ ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا، فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا؛ فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ، فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾[الأحزاب: ٥٣].

غير أنّ حياء النبي ﷺ لم يكن يمنعه من قول الحق والغضب له؛ لأن الحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بحقوق الله أو العباد ليس بحياء في الحقيقة، بل هو عجز ومهانة[٢].

(١) صحيح البخاري: باب من لم يواجه الناس بالعتاب، رقم ٥٧٥٠.
(٢) فتح الباري: ١٠/ ٥٢٢.

(١٢)-عدل النبي صلى الله عليه وسلم :

العدل هو المساواة في المكافأة في خيرٍ أو شرٍ، والإحسانُ مقابلةُ الخيرِ بأكثر منه، والشرِ بتركه أو بأقل منه[١]، أو بأسلوبٍ آخر: العدلُ هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسانُ أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له، فالإحسان فوق العدل، والعدل واجب، والإحسان ندب وتطوع[٢].

ومن يقرأ في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد أنه كان المثل الكامل في الأمرين، ففيما يتعلق بإنصاف غيره من نفسه، أو بإنصاف بعضهم من بعض، فإنه كان يأخذ بالعدل. وفيما يتعلق بالانتصاف لنفسه من غيره، فإنه كان يأخذ بالإحسان.

روى أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِّ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْماً، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ -وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِّ اعْدِلْ، فَقَالَ: «وَيْحَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ. لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ»، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِّ ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ صلى الله عليه وسلم: «دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣٢٥؛ فتح الباري: ١٠/ ٤٨٠.
(٢) المفردات في غريب القرآن: ١١٩.

يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[١].

-ولما سرقت المرأة المخزومية أهمَّ قُرَيْشًا شأنها، فَقَالُوا من يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وسلم؟ وَمَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسَامَةُ حِبُّ رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم! فَكَلَّمَ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: «أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللهَّ؟» ثُمَّ قام فَخَطَبَ قال: «يا أَيُّهَا الناس؛ إنما ضَلَّ من كان قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ، وأيم اللهَّ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا»[٢].

-وكان أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ -وهو من صالحي الأنصار ونقبائهم- يُحَدِّثُ قَوْمَه ذات مرة ويُضْحِكُهُمْ بمزاحه ومليح كلامه، والنبي صلى الله عليه وسلم معهم في المجلس، فطَعَنَهُ النبي في خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ، فقال: أَصْبِرْنِي (أي؛ أقدني من نفسك). فقال: «اصْطَبِرْ»، قال: إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصاً، وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ، فَرَفَعَ النبي صلى الله عليه وسلم عن قَمِيصِهِ. فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ (أي؛ بطنه فوق مشد الإزار). قال: إنما أَرَدْتُ هذا يا رَسُولَ اللهَّ[٣].

(١) صحيح البخاري: باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٤١٤؛ صحيح مسلم: باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم ١٠٦٣ و ١٠٦٤. قال النووي في شرحه على مسلم (٧/ ١٥٩): خبت وخسرت بفتح التاء وضمها، والفتح أشهر.

(٢) صحيح البخاري: باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم ٦٤٠٦.

(٣) سنن أبي داود: باب في قبلة الجسد، رقم ٥٢٢٤؛ السنن الكبرى للبيهقي: باب ما جاء في قتل الإمام وجرحه، رقم ١٥٧٩٨-١٥٨٠٠؛ المعجم الكبير للطبراني: رقم ٥٥٦ و٥٥٧. وقد روي

-كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده سهم يعدلهم به. فَمَرَّ بسواد بن غزية حليف بني عدي بن النجار وهو متقدم على الصف بعض الشيء، فطعن الرسول صلى الله عليه وسلم في بطنه بالسهم، وقال: «استو يا سواد»، فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه، فقال: «استقد»، قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله حضر ما ترى (أي؛ المعركة)، فأردت أن يكون آخر العهد بك، أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير[١].

-ومن صور عدله صلى الله عليه وسلم وإقامته لشرع الله تعالى ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلَتْ إليه إحدى أُمهات المؤمنين بِصَحْفَةَ فيها طعام، فَضَرَبتِ التي هو في بيتها يَدَ الخادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحفَةُ، فانْفَلَقَتْ، فَجَمَعَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- فِلَقَ الصَّحفَةِ، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «غَارتْ أُمُّكم، غارتْ أُمُّكم»، ثم حبس الخادم حتى أُتِيَ بِصَحفَةَ من عند التي هو في بيتها، فدفعها إلى التي كُسِرَتْ صَحْفَتُها، وأمسك المكسورة في بَيْتِ التي

بأسانيد متعددة منها منقطع، ومنها ضعيف، ومنها قوي. انظر: المقاصد الحسنة: ٤٣٨ وكشف الخفاء: ٢/ ٥٣.

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٤١٠.

كَسَرَتْها[١].

هذه بعض صور عدله وإنصاف الناس من نفسه، أو من بعضهم البعض، وأما صور إحسانه فقد مر معنا بعض الأمثلة كمعاملتهّ لقريش بعد فتح مكة، ومن آذوه في جسده الشريف، أو بكلامهم فيه أو في عرضه، ولم يقتص منهم بل عفا وأصفح.

(١٣)-أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع أهله :

حثَّ الرسول عليه الصلاة والسلام على حسن التعامل مع الأهل، فقال: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وأنا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»[٢]، وكما وصف الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، فقد كان خير الناس لأهله في طيب كلامه معهن، وحسن عشرته لهن، وإكرامه لمشاعرهنّ، ذكرت السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ وَهِيَ جَارِيَةٌ فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: «تَقَدَّمُوا»، فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالِ أُسَابِقْكِ»، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلِي، فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ، خَرَجْتُ أَيْضاً مَعَهُ فِي سَفَرٍ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: «تَقَدَّمُوا»، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالِ أُسَابِقْكِ»، وَنَسِيتُ الَّذِي كَانَ، وَقَدْ حَمَلْتُ اللَّحْمَ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ أُسَابِقُكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَأَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؟ فَقَالَ: «لَتَفْعَلِنَّ»، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ: «هَذِهِ بِتِلْكَ

(١) صحيح البخاري: باب الغيرة، رقم ٤٩٢٧.
(٢) سنن الترمذي: باب فضل أزواج النبي، رقم ٣٨٩٥. وقال: حسن غريب صحيح.

السَّبْقَةِ»[١].

وتروي السيدة عائشة أم المؤمنين أيضاً فتقول: والله لقد رأيت رَسُولَ اللهِّ صلى الله عليه وسلم يَقُومُ على بَابِ حُجْرَتِي، وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ فِي مَسْجِدِ رسول اللهِّ صلى الله عليه وسلم، يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ لِكَيْ أَنْظُرَ إلى لَعِبِهِمْ، ثُمَّ يَقُومُ من أَجْلِي حتى أَكُونَ أنا التي أَنْصَرِفُ، فَاقْدِرُوا قَدْرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ حَرِيصَةً على اللَّهْوِ[٢].

وحين سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ، أجابت: كان يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ-، فإذا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ[٣].

وفي أحاديث أخرى كانت إجابتها أكثر تفصيلاً، فقد ذكرت صور خدمته صلى الله عليه وسلم في بيته، فَقَالَتْ: كان يفعل مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَرْقَعُ دَلْوَهُ[٤].

وفي حديث آخر: ما كَانَ إِلَّا بَشَراً مِنَ الْبَشَرِ، كَانَ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ[١].

(١) سنن النسائي: باب مسابقة الرجل زوجته، رقم ٨٩٤٥؛ سنن أبي داود: باب في السبق على الرِجْل، رقم ٢٥٧٨.
(٢) صحيح مسلم: باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، رقم ٨٩٢.
(٣) صحيح البخاري: باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، رقم ٦٤٤.
(٤) المسند: رقم ٢٤٧٩٤ و٢٥٣٤١؛ صحيح ابن حبان: باب ذكر ما يستحب للمرء أن لا يأنف من العمل المستحقر في بيته بنفسه وإن كان عظيماً في أعين البشر، رقم ٥٦٧٦. قال محقق الكتابين: حديث صحيح.

وهذ كله من تواضعه عليه الصلاة والسلام، ورغبته في أن يخدم نفسه، ولا يكون عبئاً على أهله.

وكان مِن حبه ووفائه الشديد لزوجه خديجة رضي الله عنها، أنه كان يكثر ذكرها بعد وفاتها، ويكثر من الثناء عليها، وكان يصل صاحباتها إكراماً لها حتى إنه كان يذبح الشاة ويفرقها بين صديقاتها. تقول السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها: ما غِرْتُ على أَحَدٍ من نِسَاءِ النبي صلى الله عليه وسلم ما غِرْتُ على خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قلت له :كَأَنَّهُ لم يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلا خَدِيجَةُ! فيقول: «إِنَّهَا كانت، وَكَانَتْ، وكان لي منها وَلَدٌ»[٢]، أي أنها كانت فاضلة، وكانت عاملة، وكانت تقية، ونحو ذلك.

(١٤)-أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع الأطفال:

كان صلى الله عليه وسلم يمر بالصبيان فيسلم عليهم[٣]، ويسمع جواري -فتيات صغيرات- يغنين في بيته ويلعبن فلا يمنعهن، تقول السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنه: دخل عَلَيَّ أبو بَكْرٍ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ من جَوَارِي الْأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِهِ الْأَنْصَارُ يوم بُعَاثَ، قالت: وَلَيْسَتَا بِمُغَنِّيَتَيْنِ، فقال أبو بَكْرٍ: أَبِمَزْمُورِ الشَّيْطَانِ في بَيْتِ رسول اللهِ صلى الله

(١) صحيح ابن حبان: الباب السابق، رقم ٥٦٧٥. قال محققه: إسناده قوي على شرط مسلم.
(٢) صحيح البخاري: باب تزويج النبي خديجة وفضلها، رقم ٣٦٠٧.
(٣) صحيح البخاري: باب التسليم على الصبيان، رقم ٥٨٩٣.

عليه وسلم وَذَلِكَ في يَوْمِ عِيدٍ، فقال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا»[١].

وكان من شدة شفقته على الأطفال ورحمته بهم، أنه كان وهو في الصلاة -التي هي أعظم عبادة- ومع أصحابه يؤمهم جماعة، يسمع بكاء الصبي فيخفف من صلاته رحمة به وبأمه لِما يعلمه من وَجْد الأم وعطفها على ولدها. روى أنس أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ بُكَاءَ صَبِيٍّ فِي الصَّلَاةِ، فَخَفَّفَ، فَظَنَنَّا أَنَّهُ خَفَّفَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ فِي الصَّلَاةِ رَحْمَةً ويقول صلى الله عليه وسلم: «إني لَأَقُومُ في الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فيها فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ في صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ على أُمِّهِ»[٣].

وكان صلى الله عليه وسلم يَؤُمُّ الناس وَأُمَامَةُ بِنْتُ أبي الْعَاصِ -وهي ابْنَةُ زَيْنَبَ بِنْتِ النبي صلى الله عليه وسلم- على عَاتِقِهِ، فإذا رَكَعَ وَضَعَهَا، وإذا رَفَعَ من السُّجُودِ أَعَادَهَا[٤].

ودخل الحسن والحسين رضي الله عنهما المسجد ذات مرة، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب في الناس، فنظر إليهما فإذا هما يمشيان ويعثران، فخشي أن يصيبهما الأذى من تعثرهما، فنزل إليهما، ووضعهما بين يديه على المنبر وقال: «صَدَقَ الله، أنما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ،

(١) صحيح مسلم: باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، رقم ٨٩٢.
(٢) المسند: ١٢٨٧٧. قال المحقق: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٣) صحيح البخاري: باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، رقم ٦٧٥.
(٤) صحيح مسلم: باب جواز حمل الصبي في الصلاة، رقم ٥٤٣.

نَظَرْتُ إلى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فلم أَصْبِرْ حتى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»[1].

وكان ذات مرة يُقَبِّل الحسن وعنده الأقْرَعُ بن حابِسٍ. فقال الأقْرَعُ: إنَّ لي عَشَرَةً من الوَلَدِ ما قَبَّلْتُ منهم أَحَداً! فَنَظَرَ إليه رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قال: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»[2]، وعندما قال لَهَ أحدهم مستغرباً: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ! فما نُقَبِّلُهُمْ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَوَ أَمْلِكُ لكَ أَنْ نَزَعَ الله من قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»[3].

فبين أن تقبيل الولد ومداعبته وإدخال السرور على قلبه من الدين، ومما يحبه الله، وأبعد الناس من الله القلب القاسي.

(١٥)-أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم مع العبيد والخدم:

كان النبي صلى الله عليه وسلم رحيماً بالعبيد والخدم غاية الرحمة، ويكرمهم غاية الإكرام، وكان يوصي المسلمين بهم خيراً. والمواقف والمشاهد التي تدل لذلك وتؤكده كثيرة جداً منها:

- كان زيد بن حارثة عبداً لخديجة، فأهدته للنبي صلى الله عليه وسلم بعد زواجها، وقَدِم والده إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب إعتاقه ويبدي استعداده لشرائه بالمال. فأخبره الرسول بأنه سينادي ويخيره،

(١) سنن أبي داود: باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، رقم ١١٠٩؛ سنن الترمذي: باب مناقب الحسن والحسين، رقم ٣٧٧٤. وقال حسن غريب.
(٢) صحيح البخاري: باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم ٥٦٥١.
(٣) صحيح البخاري: باب حسن الخلق والسخاء، رقم ٥٦٩١.

فقَبِل والده بذلك، وسُرَّ به؛ لأنه لم يكن يساوره أية شكوك بأنه سيختاره والده وأهله، فناداه الرسول وخيره بين البقاء عنده أو اللحاق بوالده، فكان جوابه: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أبداً، قال والده: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وأهل بيتك؟ قال: نعم؛ قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً[1]، فانصرف والده واطمأن على وضع ابنه، وتبناه الرسول صلى الله عليه وسلم، فأصبح ينادى بزيد بن محمد حتى نَزَلَ في الْقُرْآنِ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[2].

- كان أسامة بن زيد بن حارثة يُلَقَّبُ بحِبِّ رسول الله وابن حِبِّه، وذات مرةٍ أمَّرَه النبي صلى الله عليه وسلم على غزوة، فوجد بعض المسلمين في نفسه شيئاً من ذلك، ربما لصغر سنه، وربما بالنظر إلى والده وكونه مولى، فلم يعجبهم أن يؤمَّرَ على شيوخهم ووجهائهم، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقام فيهم خطيباً، وقال: «إن تَطْعَنُوا في إِمْرَتِهِ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ في إِمْرَةِ أبيه من قَبْلُ، وأيم اللهَّ إن كان لَخَلِيقاً لِلْإِمْرَةِ، وَإِنْ كان لَمِنْ أَحَبِّ الناس إليَّ، وَإِنَّ هذا لَمِنْ أَحَبِّ الناس إليَّ بَعْدَهُ»[3].

(١) زاد المعاد: ٣/ ٢٠.
(٢) صحيح مسلم: باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، رقم ٢٤٢٥.
(٣) صحيح مسلم: باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، رقم ٢٤٢٦.

وحين أهمّ قريشاً أمر المخزومية التي سرقت، لم يجد من يمكن أن يشفع فيها إلا أسامة بن زيد لِما يعلمون من مكانته لدى النبي صلى الله عليه وسلم[١].

- كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بحسن معاملة العبيد ويقول: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمْ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كان أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»[٢]، وكان يأمر بمناداتهم بما يشعرهم بكرامتهم، فيقول: «لَا يَقُولَنَّ أحدكم عَبْدِي وَأَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهَّ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهَّ وَلَكِنْ لِيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي»[٣].

- ويقول أنس رضي الله عنه: خَدَمْتُ النبي صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ فما قال لي أُفٍّ، ولا لِمَ صَنَعْتَ، ولا ألا صَنَعْتَ[٤].

- وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: ما ضَرَبَ رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم شيئاً قَطُّ بيده، ولا امْرَأَةً، ولا خَادِماً، إلا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبِيلِ اللهَّ، وما نِيلَ منه شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ من صَاحِبِهِ إلا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ من مَحَارِمِ اللهَّ فَيَنْتَقِمَ للهَّ عز وجل[٥].

(١) صحيح البخاري: باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم ٦٤٠٦.
(٢) صحيح البخاري: باب قول النبي: العبيد إخوانكم فأطعموهم، رقم ٢٤٧٠.
(٣) صحيح البخاري: باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي أو أمتي، رقم ٢٤١٤؛ صحيح مسلم: باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة، رقم ٢٢٤٩. واللفظ لمسلم.
(٤) صحيح البخاري: باب حسن الخلق والسخاء، رقم ٥٦٩١.
(٥) صحيح مسلم: باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، رقم ٢٣٢٨.

(١٦)-هديه صلى الله عليه وسلم في الرفق بالحيوان:

لم يكن قلب النبي صلى الله عليه وسلم المفعم بالرحمة والشفقة ليستثني الحيوانات من تلك الرحمة والشفقة، ومن ثَمَّ وجدناه يخصها بأحكام شرعية تؤصل لذلك. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَّ كَتَبَ الْإِحْسَانَ على كل شَيْءٍ، فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[١]، وقد قال النووي في هذا الحديث الشريف بأنه من الأحاديث الجامعة لقواعد الاسلام[٢].

وكان بعض الفتيان يلجؤون على سبيل اللعب إلى نصب بهائم للرمي إليها، فرآهم بعض الصحابة، فأنكروا عليهم لما فيه من إيذاء وتعذيب لها يتنافى مع رحمة الإسلام، من ذلك: أن أنس بن مالك رضي الله عنه دخل دار الحكم بن أيوب فوجد قَوْماً قد نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا، فقال: نهى رسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِمُ[٣].

ومَرَّ عبد الله بن عُمَرَ بِفِتْيَانٍ من قُرَيْشٍ قد نَصَبُوا طَيْراً وَهُمْ يَرْمُونَهُ وقد جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ من نَبْلِهِمْ، فلما رَأَوْا ابن عُمَرَ تَفَرَّقُوا. فقال ابن عُمَرَ: من فَعَلَ هذا؟ لَعَنَ الله من فَعَلَ هذا، إِنَّ رَسُولَ

(١) صحيح مسلم: باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، رقم ١٩٥٥.
(٢) شرح النووي على مسلم: ١٣/ ١٠٧.
(٣) صحيح مسلم: باب النهي عن صبر البهائم، رقم ١٩٥٦.

اللهَّ صلى الله عليه وسلم لَعَنَ من اتَّخَذَ شيئاً فيه الرُّوحُ غَرَضاً[١].

وغفر الله لرجل في كلب رآه «يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى من الْعَطَشِ فقال: لقد بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بِي، فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ الله له، فَغَفَرَ له»، قالوا: يا رَسُولَ اللهَّ، وَإِنَّ لنا في الْبَهَائِمِ أَجْراً؟ قال: «في كل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[٢].

وعُذِّبَتْ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حتى مَاتَتْ جُوعاً فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ[٣].

وختاماً نقول: إنّ هذه الصور لم تكن سوى غيض من فيض عن أخلاق الحبيب محمد صلوات الله وسلامه عليه، وإن المجلدات العظام لن تحيط بوصفه، وإن البشر مهما قالوا، ومهما كتبوا في أخلاقه، فإنهم لن يبلغوا ثناء الله عليه وعلى أخلاقه: وَإِنَّكَ لَعَلَىَ خُلُقٍ عَظِيمٍ، فالإله العظيم عندما يصف خُلُقَ الحبيبِ بأنه عظيم، فماذا عسى أن يبلغ وصف البشر لأخلاقه صلى الله وسلم عليه.

غير أنّ الذي يجب أن لا نغفل عنه، هو السعي في إحياء هذه الأخلاق النبوية في حياتنا، فنتحلى بها، ونربي عليه الأجيال، وندعو المسلمين إلى التحلي بها. بل نسعى لنشرها بين غير المسلمين، خصوصاً في هذا الوقت الذي تكاد فيه الأخلاق الحميدة والمثل العليا أن تختفي من حياة الناس، وتصبح المادة والمصلحة والمنفعة هي الغاية القصوى من الوجود. إن

(١) صحيح مسلم: باب النهي عن صبر البهائم، رقم ١٩٥٨.
(٢) صحيح البخاري: باب فضل سقي الماء، رقم ٢٢٣٤.
(٣) صحيح البخاري: باب فضل سقي الماء، رقم ٢٢٣٦.

البشرية اليوم ظامئة، وهي بأمس الحاجة إلى إحياء القيم التي جاء بها رسولنا الكريم.

إن أعظم خدمة نقدمها لديننا الحنيف، وأيسر سبيل للدعوة إلى الله، هو أن نُعرِّفَ الآخرين بنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، أن نُعرِّفَهم بأخلاقه وشمائله وسجاياه، ليتخذوه أسوةً ومَثَلاً أعلى في حياتهم كما يحبه الله ويرضاه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب:٢١].

نسأل الله أن يخلقنا بأخلاق نبيه الكريم، وأن يعيننا على نشرها والدعوة إليها.